

# الباب الساوس عشر من الإسكندر إلى أورانجزيب

## الفصل الأول

### تشاندرأ جوبتا

الإسكندر في الهند - تشاندرأ جوبتا محرر بلاده - الشعب -  
جامعة تاكسيلا - القصر الملكي - يوم في حياة ملك - مكيافل  
أسبق عهداً من مكيافل الحديث - الإدارة - القانون - الصحة  
العامة - النقل والطرق - الحكومة البلدية

في سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، عبر اسكندر الأكبر جبال هندوكوش آتياً في طريقه من فارس ، وهبط على بلاد الهند ؛ ولبت عاماً يجول بحملته بين دول الشمال الغربي من الهند ، التي كانت جزءاً من أغنى أجزاء الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ يجمع منها المون لجنوده والذهب لخزائنه ؛ وعبر السند في الجزء الأول من سنة ٣٢٦ ق. م . وشق طريقه بالقتال بطيئاً ، متخللاً « تاكسيلا » و « روالپنڊي » متجهماً نحو الجنوب والشرق ، والتقى بجيش الملك پورس حيث هزم من جيش المشاة ثلاثين ألفاً ، ومن الفرسان أربعة آلاف ، ومن العربات الحربية ثلاثمائة ، ومن القبيلة مائتين ، وقتل اثني عشر ألف رجل ؛ فلما أن أسلم « پورس » بعد أن قاتل حتى استنفد جهده ، أمره الإسكندر أن يقول على أى نحو يريد أن يعامله ، ذلك لأنه أعجب بشجاعته وقوامه وجمال قسماته ، فأجاب « پورس » ، « عاملني يا اسكندر معاملة تليق بالملوك » فقال الإسكندر : وسأعاملك معاملة الملوك بالنسبة إلى نفسي ، وأما بالنسبة إليك أنت ، فمَسْرُ بما تريد ، لكن « پورس » أحاب بأن كل شيء يريد

متصمناً فيما طلب أولاً ؛ وأعجب الإسكندر بهذا الجواب إعجاباً شديداً ، ونصب « بورس » ملكاً على الهند المفتوحة كلها ، باعتباره تابعاً خاضعاً لمقدونيا ، ولقد وجده بعدئذ حليفاً نشيطاً أميناً (١) ، وأراد الإسكندر أن يتقدم بجيوشه حتى يبلغ البحر من ناحية الشرق ، لكن جنوده احتجوا على ما أراد ، وكرر في ذلك بينهم القول وازداد التجهم ، فخضع الإسكندر لمشيئتهم وقادهم خلال قبائل معادية له إشفاقاً على أوطانهم من اعتدائه ، مما اضطر جنود الإسكندر أن يجاربوا في سيرهم عند كل قدم من الطريق ، أو كادوا - قادمين حذاء « هيداسب » وإلى جوار الساحل ؛ حتى احترق بهم « جدروسيا » إلى بلوخستان ؛ فلما وصل « سوزا » بعد عشرين شهراً من عودته بعد فتوحه لم يعد جيشه أكثر من فلول منهوكة من الجيش الذي كان قد دخل به الهند قبل ذلك بثلاثة أعوام .

وبعد ذلك بسبعة أعوام كان كل أثر للسلطان المقدوني قد زال عن الهند زوالاً تاماً (٢) ، وكان العامل الأول في زوال ذلك السلطان ، رجل هو من أبوع من يثير الخيال في تاريخ الهند من رجال ؛ فهو وإن يكن أقل منزلة في صفاته العسكرية من الإسكندر ، إلا أنه أعظم منه حاكماً ؛ ذلك هو « تشاندرا جويتا » الشريف الشاب الذي ينتمي إلى طبقة الكشاترية المقاتلة ، وقد نفته من « مجازا » أسرة « ناندا » الحاكمة التي كان هو من أبنائها ، وكان إلى جانبه ناصح مكياقيلي<sup>٣</sup> ماكر ، هو « كوتيبلا تشاناكيا » الذي أعانه على تنظيم جيش صغير اكتسح به الحاميات المقدونية ، وأعلن الهند حرة من الغازي ثم تقدم إلى « باناليبوترا (٤) » عاصمة مملكة « مجازا » وأثار فيها ثورة واستولى على عرشها ، وأسس بها « أسرة موريان الحاكمة » التي حكمت الهندستان وأفغانستان مدى مائة وسبعة وثلاثين عاماً ، ولما استسلم « تشاندرا جويتا » بشجاعته لحكمة « كوتيبلا » التي لم يكبح جماحها ضمير ، سرعان ما أصبحت

(\*) هي ما نسمي الآن « باننا » .

حكومته أقوى حكومة كان يعرفها العالم عندئذ ، حتى أنه لما جاء المجسطى سفيرا في « باتاليبوترا » عن « سلوكس نكتار » ملك سوريا ، أدهشه أن يرى هناك مدينة وصفها لليونان المدققين المتشككين الذين كانوا عندئذ لم يزالوا في موضع قريب من أوج حضارتهم ، فقال إنها مدنية مساوية للمدنية اليونانية مساواة تامة (٣) .

وصف لنا هذا الإغريق الحياة الهندية في عصره وصفاً ممتعاً ، ربما مال فيه نحو التهاون في الدقة ليكون في صالح الهود ؛ وأول ما استوقف نظره هناك هو « ألاق » في الهند (\*) على خلاف ما عهدته في أمته ، وهو اختلاف يجعل الأولى أعلى من الثانية منزلة في هذه الناحية ، وأنه على الرغم من انقسام السكان إلى طبقات حسب ما يؤدونه من أعمال ، فقد قبل الناس هذه الأقسام على أنها طبيعية ومقبولة ؛ ويقول السمبر عنهم في تقريره إنهم كانوا « يعيشون عيشاً سعيداً » لأنهم :

« في سلوكهم يتصرفون بالبساطة ، وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا في الاحتفال بتقديم القرابين ... والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما يلجأون إلى القناون ، فهم لا يتقدمون إلى محاكمهم بقضايا عن خرق العهود أو نهب الودائع ، بل هم لا يحتاجون إلى أختام أو شهود ، لكنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض . . . إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدرأ عظيماً .. والجزء الأعظم من أرضهم يزرع بالرى ، ولذلك ينتج محصولين في العام ... ولهذا كان من الثابت أن الهند لم تعرف المجاعة قط ، ولم يكن بها قحط عام في موارد الطعام اللازم للتغذية (\*) .

وأقدم المدائن الألفين التي كانت في الهند الشمالية في عهد « تشاندر اچوبتا » هي مدينة « تاكسيلا » التي تبعد عشرين ميلاً - جهة الشمال الغربي - عن

(\*) يقول « أريان » : « هذا شيء عظيم في الهند ، أعنى أن يكون سكانها جميعاً أحراراً ، ليس بينهم هدى واحد من الرقيق » (٤) .

مدينة «روالهندي» الحديثة ، ويصفها «أريان» بأنها : «مدينة عظيمة مزدهرة» ؛ ويقول «ستراوبو» : «لأنها كبيرة وبها أرقى القوانين» ، فقد كانت مدينة عسكرية ومدينة جامعية في آن معاً ، إذ تقع من الواجهة العسكرية على الطريق الرئيسية المؤدية إلى آسيا الغربية ، وكان بها أشهر الجامعات الكثيرة التي كانت في الهند إذ ذلك ، فكان يحج إليها الطلاب زرافات ، كما كانوا يحجون زرافات إلى باريس في العصور الوسطى ، ففي وسع الطلاب أن يدرسوا بها ما شاعوا من فنون وعلوم على أيدي أساتذة أعلام ، وخصوصاً مدرستها للطب ، فقد ذاع اسمها في العالم الشرقي كله مقروناً بالتقدير العظيم (\*) .

ويصف الجسطي مدينة «بالبيوترا» عاصمة الملك «تشانديرا چوپتا» فيقول إنها تسعة أميال في طولها وميلان تقريباً في عرضها (١٠) وكان القصر الملكي بها من خشب ، لكن السفير الإغريقي وضعه في منزلة أعلى من منزلة المساكن الملكية في «سوزا» و«إكياتانا» ولا يفوقه إلا قصور «پرسوپوليس» (أى مدينة الفرس) ؛ فأعمدته مطلية بالذهب ومزخرفة بنقوش من حياة الطير ومن ورق الشجر ، وهو من الداخل موثث تأثيثاً فاخراً ومزدان بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة (١١) ؛ وقد كان في هذه الثقافة قسط من حب الشرقيين للتظاهر ، فمثلا ترى ذلك واضحاً في استخدامهم لآنية من الذهب قطر الواحدة منها ست أقدام (١٢) ؛ لكن مؤرخاً إنجليزياً يبحث الآثار المادية والأدبية والتصويرية لتلك المدينة فيوصل إلى نتيجة ، هي أنه «في القرنين الرابع والثالث قبل المسيح لم يكن ما يتمتع به ملك موريا من أسباب الترف بكل

(\*) كتبت حفريات سبرچون مارشال في تاكسيلا عن أحجار منجوتة نحتاً دقيقاً ، وعن تماثيل مصقولة صقلا بلغ الغاية ، وعن نقود ترجع إلى سنة ٦٠٠ ق . م . وعن مصنوعات زجاجية دقيقة الصناعة لم نعهها أية صناعة من نوعها في الهند بعدئذ (٨) ، ويقول فنسنت سميث : «إنه من الواضح أنهم بلغوا من الحضارة حداً بعيداً ، وأن كل العيون والصناعات التي تصاحب حياة مدنية غنية مثقفة ، كانت معروفة لهم (٩)» .

ضروبها ، والصناعات اليدوية الماهرة بكل أنواعها ، أقل مما كان يتمتع به أباطرة المغول بعد ذلك بمائة عشر قرناً» (١٢) ٥

أقام «تشاندر جويتا» في هذا القصر ، بعد أن استولى على العرش بالقوة ، مدى أربعة وعشرين عاماً ، فكان كأنما يعيش منه في سجن مطلي بالذهب ؛ وكان يظهر للشعب حيناً بعد حين ، مرتدياً ثوباً من الموصلى الموشى بالأرجوان والذهب ، محمولا في محفة ذهبية ، أو على فيل مطهم بأفخر الطهم ؛ وكان وقته مليئاً بأعمال مملكته المتزايدة ، لإساعات كان يقضيها في الصيد أو في غيره من أنواع التسلية ؛ فيومه ينقسم ستة عشر جزءاً طول الجزء منها تسعون دقيقة ، فكان يستيقظ في الجزء الأول من يومه فيُعيدُ نفسه بشيء من التأمل ، وفي الثاني يقرأ التقارير التي يرفعها إليه موظفوه ، ويصدر فيها تعليمات سرية وفي الثالث يجتمع بمستشاريه في قاعة المقابلات الخاصة ؛ وفي الرابع يبحث في أمور المالية والدفاع القومي ؛ وفي الخامس يصغى إلى شكاوى رعيته وقضاياها ؛ وفي السادس يستحم ويتناول غداءه ويقرأ شيئاً من كتب الدين ، وفي السابع يتقبل الضرائب الجزية ويضرب المواعيد الرسمية ؛ وفي الثامن يلتقى بمستشاريه مرة ثانية ويستمع إلى ما يقرره له الجواسيس الذين كان يرصدهم ، وبين هؤلاء عاهرات استخدمهن لهذه الغاية (١٤) ؛ ونخصص الجزء التاسع من يومه للاستحمام والصلاة ، والعاشر والحادي عشر للشئون العسكرية ؛ والثاني عشر للتقارير السرية مرة أخرى ؛ والثالث لحمام المساء ووجبته ؛ والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للنوم (١٥) ؛ ويجوز أن يكون المؤرخ قد صور لنا هذه الصورة ما كان يمكن أن تجرى عليه حياة «تشاندر جويتا» من نظام ؛ أو هو يصور لنا ما أراد «كوتيللا» أن يتصوره الناس عن مليكه ؛ أكثر مما يصور لنا حقيقة ذلك الملك في حياته ، فالحقيقة قلما تفتت من أجواف القصور .

كان زمام الحكم الحقيقي في يد وزيره الماكر «كوتيللا» و«كوتيللا»

برهمي عرف القيمة السياسية للدين ، لكنه لم يتخذ من الدين هداية خلقية ؛ فهو شبيه بدكتاتوري هذا العصر ، في إيمانه بأن كل الوسائل لها مبررات ما دامت تنتهي إلى صالح الدولة ؛ وكان غادراً لا يزرجه من نفسه ضمير ، إلا إزاء مليكه ؛ فقد خدم « تشاندر جوبتا » في منفاه وفي هزيمته وفي مغامراته وفي دسائسه وفي اغتياله للناس وفي نصره ؛ واستطاع بفضل حكمته ودهائه أن يجعل ملك سيده أعظم ما عرفته الهند في تاريخها كله ، ولقد رأى « كوتبلا » — كما رأى من بعده مؤلف « الأمير » (\*) — أنه من المفيد أن يدون للأجيال القادمة آراءه التي عمّلت بها الأمور العسكرية والسياسية ؛ وإن الرواية لتنسب إليه كتاب « أرذاشاسترا » وهو أقدم كتاب مما بقي لنا من الأدب السنسكريتي (١٦) ولكن نسوق لك مثلاً من واقعته الدقيقة ، نذكر لك ما ذكره من الوسائل التي تتبع في الاستيلاء على أحد الحصون ، وهي : « الدسائس والجواسيس واستمالة شعب الأعداء ، والحصار والهجوم » (١٧) — وفي هذه الدسائس اقتصاد حكيم للمجهود البدني .

لم تزعم الحكومة لنفسها اصطناع الأساليب الديمقراطية ؛ والأرجح أنها كانت حكومة لم تشهد الهند طوال تاريخها حكومة أكفأ منها (١٨) ؛ فلم يكن لدى « أكبر » — وهو أعظم المغول — ما يماثلها كفاءة ، ومما يدعو إلى الشك أن يكون بين المدن اليونانية القديمة ما يفوقها نظاماً (١٩) ؛ كانت تقوم عراحة على القوة العسكرية ؛ فكان « لشاندر جوبتا » جيش قوامه — إذا أخذنا برأى المحسطنى (الذي يجب أن يكون موضع ريبة كأي مراسل أجنبي آخر) — ستمائة ألف من المشاة ، وثلاثون ألفاً من الكبان ، وتسعة آلاف من القبيلة ، وعدد لم يحدد من العربات الحربية (٢٠) ؛ وكان البراهمة والفلاحون يعفون من الخدمة العسكرية ، فيصف لنا « سترابو » هؤلاء الفلاحين وهم

(\*) مؤلف كتاب « الأمير » هو مكياثلى صاحب السياسة الوصولية المشهور . (المعرب)

يحرثون الأرض في هدوء وأمن وسط حومات تضطرب بالقتال (٢١) .

وكانت سلطة الملك مطلقة من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فكان يحدُّها مجلس للشورى كان من شأنه التشريع - أحياناً في حضور الملك ، وأحياناً في غيابه - وتنظيم المالية القومية والشئون الخارجية ، وهو الذى كان يعين لكل المناصب الهامة في الدولة رجالها ؛ ويشهد المجلس بما كان لأعضاء ذلك المجلس من « خلق سام وحكمة عالية » كما يذكر ما كان لهم من نفوذ فعال (٢٢) .

كانت الحكومة مقسمة أقساماً لكل منها واجبات واضحة الحدود ، وموظفون يتدرجون في درجاتهم تدرجاً أحسن تديره ؛ فتقوم هذه الأقسام بالإشراف على الدخل ، والجارك ، والحدود ، وجوازات السفر ، والمواصلات ، والضرائب ، والمناجم ، والزراعة ، والماشية ، والتجارة ، والمخازن ، والملاحة ، والغابات ، والألعاب العامة ، والدعارة ، وسك النقود - لكل من هذه قسم خاص ؛ وكان للمشرف على قسم ضريبة الإنتاج حق رقابة بيع العقاقير والمسكرات ، وكان يقيّد عدد الخانات ومواضعها ، وكمية الخمور التي يجوز لها أن تباعها ؛ وللمشرف على المناجم أن يؤجر مواقع الاستنجم لأفراد يدفعون للحكومة أجراً معلوماً وجزءاً معيناً من الربح ؛ ولالإشراف على الزراعة نظام كهذا ، لأن الأرض كلها كانت ملكاً للدولة ؛ وللمشرف على الألعاب العامة الرقابة على قاعات القمار ، وأن يقدم الزهر « زهر اللعب » للاعبين ويتقاضاهم رسماً على استخدامه ، كما كان يقطع خزانة الدولة خمسة في كل مائة مما يدفعه اللاعبون ، وأما المشرف على الدعارة فكان من شأنه أن يراقب العاهرات ، ويضبط أجورهن ومصروفهن ، وكان يحدد لأعمالهن يومين من كل شهر ، ويأخذ منهن اثنتين للقصر الملكى ، تقومان هناك للمتعة من جهة وللجاسوسية من جهة أخرى ، وفرضت الضرائب على كل مهنة وكل عمل وكل صناعة ! أضف إلى ذلك ما كان الأغنياء يحملون على دفعه من « تبرعات » للملك ، وكانت الحكومة تراقب الأسعار ، وتراجع الموازين والمنايايس حيناً بعد حين ؛ ثم كان للدولة مصانيع خاصة بها تقوم

فيها الحكومة بصناعة بعض الأشياء، كما كانت تباع الخضرة وتحتكر المناجم والملح والخشب والمنسوجات الدقيقة والجلود والبقية (٢٣).

وكان يقوم على القانون في الريف رؤساء محليون في القرى ، أو مجالس قروية قوام الواحد منها خمسة رجال ؛ وأما في المدن والأقاليم والمناطق فيعهد بأمره إلى محاكم دنيا ومحاكم عليا ، وفي العاصمة يتولاه المجلس الملكي باعتباره محكمة عليا ، ويتولاه الملك نفسه على أنه محكمة استئناف ، لا نقض لحكمها ؛ وكانت العقوبات صارمة ، منها بتر الأعضاء والتعذيب والموت ، وهي تقوم عادة على مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » أى مبدأ القصاص المتبادل ؛ لكن الحكومة لم تكن مجرد أداة للضغط على الشعب ، بل كانت كذلك تعنى بالصحة العامة ، فأقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء ، وكانت توزع في السنين العجاف ما قد يكون في مخازن الدولة استعداداً لأمثال هذه الطوارئ ؛ وتضطر الأغنياء إلى المشاركة في معاونة المعوزين ، وتنظم مشروعات عامة كبرى للعناية بالمعطلين في سنى الأزمات (٢٤) .

وأما قسم الملاحة فكان اختصاصه تنظيم النقل المائي ووقاية المسافرين في الأنهار والبحار ؛ وكانت كذلك ترعى الجسور والموانئ ، وتبني « معديات » حكومية تعمل جنباً إلى جنب مع « المعديات » الخاصة التي يملكها ويديرها أفراد (٢٥) - وهو نظام جميل يمكن الحكومة بدخولها في المنافسة من الحد من إسراف الأفراد في استغلال الجمهور ، كما تمكن المنافسة الحرة من الحد من إسراف الحكومة وبدخولها ؛ وكان من واجب قسم المواصلات أن يشق الطرق ويعبدها ، يقوم على صيانتها في أرجاء الإمبراطورية ، من المديقات الضيقة التي تُعدّ للعربات في الريف ، إلى الطرق التجارية التي يبلغ عرض الواحد منها اثنين وثلاثين قدماً ، ثم إلى الطرق الملكية التي يبلغ عرضها أربعاً وستين قدماً ؛

وكان طريق من هذه الطرق الملكية يمتد ألفاً ومائتين من الأميال ، من « باتالبيترا » إلى الحدود الشمالية الغربية (٢٦) - وهي مسافة تساوى نصف الطريق من هاتيك الطرق الرئيسية التي تعبر الولايات المتحدة من شرقها إلى غربها ؛ وعند كل ميل تقريباً من هذه الطرق - فيما يقول المجسطى - كانت تقوم أعمدة تشير إلى الاتجاهات وتبين المسافات إلى مختلف البلدان (٢٧) ، وكانت تجدد على طول الطريق أشجاراً ظليلة وآباراً ومراكز للشركة وفنادق ، أعدوها على مسافات دورية من الطريق (٢٨) ؛ وكانت وسائل النقل هي العربات والمحفات والعربات تجرها الثيران ، ثم الجياد والجمال والبقيلة والحمير والناس ؛ وكانت القبيلة من ألوان الترف التي تقتصر عادة على الملك وكبار رجال الدولة ، وكانت من غلو القيمة عندهم بحيث عدوا عفة المرأة ثمناً موضعاً للواحد منها (\*) .

وكان يتبع في حكومات المدن مثل هذا النظام بعينه من حيث تقسيم الإدارة إلى أقسام ، فالعاصمة « باتالبيترا » كان يحكمها مجلس مؤلف من ثلاثين عضواً ، ينقسمون ستة أقسام ، يقوم قسم منها على تنظيم الصناعة ، وآخر يراقب الأجانب فيعد لهم المساكن ويعين لهم من يقوم بخدمتهم ويراقب حركاتهم ، وقسم ثالث يسجل المواليد والوفيات ، ورابع يرخص للتجار مباشرة تجارتهم ، وينظم بيع المحصول ، ويراجع المقاييس والموازين ، وخامس يراقب بيع المصنوعات ، وقسم سادس يجمع ضريبة قدرها عشرة في كل مائة عن المبيعات كلها ؛ وفي ذلك يقول « هافل » : « وصفوة القول إن بالبيترا في القرن الرابع قبل الميلاد ، فيما يظهر ، قد كانت مدينة على أتم ما تكون المدن نظاماً ، وتقوم عليها إدارة تتمشى مع أحسن المبادئ في علم الاجتماع » (٢٨) ؛ وكذلك يقول « فنسنت سميت » : « إن الكمال الذي بلغته هذه النظم التي

(\*) « إن نساهم اللاتي يحرسن كل الحرس على عفافهن ، ولا يفويهن بالفجور شيء كائنا ما كان ، كن إذا ما قدم لمن الرجل فيلا قبلت الواحدة منهن مضاجعة الواهب ؛ إذ ليس في عرف الهنود أنه مما يشين المرأة أن تسلم عرضها لقاء فيل ، بل إن المرأة عندهم لتراه مدعاة للفخار أن يكون بها مساوياً في قيمته لفيل . » (أريان)

أشرفنا إليها ، ليشير العجب حتى إن اقتصرنا في ذكره على موجز مقتضب ؛ ثم تزداد عجباً - إذا ألمت بتفصيلات الإدارة - كيف أمكن لمثل هذا النظام أن تدبّر قواعده ، وأن يُنفذ تنفيذاً دقيقاً في الهند في سنة ٣٠٠ قبل الميلاد» (٢٨ب) .

والنقص الوحيد في هذه الحكومة هو استبدادها ، وبالتالي اعتمادها اعتماداً متصللاً على القوة وعلى الجواسيس ، فحاكمها « تشاندرا جويتا » شأنه شأن كل حاكم مستبد آخر - كان فلقاً على عرشه ، لا ينقطع خوفه من الثورة والاعتقال ؛ فكان ينام كل ليلة في مخدع يختلف عن مخدع الليلة السابقة ، ولم يخلُ قط من حراسة الحراس ؛ وتروى الرواية الهندية ، ويؤيدها المؤرخون الأوروبيون ، أنه لما أطبقت جماعة طويلة على مملكة تشاندرا جويتا « (راجع المجسطى) حمله اليأس على النزول عن عرشه ، وعاش بعدئذ اثني عشر عاماً زاهداً جانثياً ، ثم انتهى به الأمر أن فرض على نفسه الجوع حتى مات به ؛ يقول قولته : « إنك لو وضعت كل الظروف موضع الاعتبار ، ألفت حياة النوتى في « جندوله » خيراً من حياة حاكم المدينة ، لكنى أعتقد أن الفرق بين حياتيهما أنه من أن يستحق منا التدقيق في أمره » (٢٩) .

## الفصل الثامن

### الملك الفيلسوف

أشوكا - مرسوم التسامح - أشوكا يرسل بموثة دينية  
فشله - نجاحه

كان الذى خَلَّفَ « تشاندر جوبتا » فى الحكم هو « بندوسارا » وهو رجل ذو نزعات عقلية لا تخفى ؛ فىقال إنه طلب إلى « أنتيخوس » ملك سوريا أن يبعث إليه بفيلسوف إغريقى ، وكتب إليه قائلاً إنه على استعداد أن يدفع ثمناً عالياً لفيلسوف إغريقى من الطراز الصحيح<sup>(٣٠)</sup> ؛ ولكن « أنتيخوس » لم يستطع إلى إجابة الطلب سييلاً ، لأنه لم يجد فيلسوفاً يونانياً معروضاً للبيع ؛ ثم شاءت المصادفة أن تعوض « بندوسارا » خيراً . فجعلت له من ابنه فيلسوفاً ؛

وتولى « أشوكا فارذانا » العرش سنة ٢٧٣ ق . م . فوجد أنه يشمل بسلطانه إمبراطورية أوسع رقعة من أى قطر حكمه فى الهند حاكم من قبله : فهو يشمل أفغانستان وبلوخستان ، وكل الهند الحديثة إلا طرفها الجنوبى - وهو ما يسمى « بأرض تامل » ولبت حيناً من الدهر يحكم على غرار جده « تشاندر جوبتا » ، أى لبت يحكم بلاده فى قسوة ، لكنه يحكمها حكماً جيداً ، فيحدثنا « يوان تشوانج » الرحالة الصينى الذى أنفق أعواماً طويلاً فى الهند إبان القرن السابع الميلادى ، بأن السجن الذى كان قائماً فى عهد « أشوكا » شمالى العاصمة ، لم يزل يذكره الناس فى الهند جيلاً عن جيل باسم « جحيم أشوكا » ؛ إذ أنبأه المبتوثون أن كل أنواع العذاب والتعذيب التى تشتمل عليها الجحيم الحقيقية ، قد استعمت فعلاً فى ذلك السجن عقاباً للمجرمين ، بل إن الملك قد أضاف إلى تلك الأنواع التقليدية من عذاب الجحيم ، مرسوماً بأن كل من يدخل ذلك الحب الخيف ، لا يجوز له قط أن يخرج منه حياً ؛ ولكن حدث ذات يوم أن أتى فى ذلك

«السجن قديس بوذى بغير أن يكون هناك ما يبرر ذلك السجن ، فقدفوا به في إناء كبير فيه ماء ساخن ، فأبى الماء أن يغلى بما فيه ؛ فأرسل السجن بالنبأ إلى « أشوكا » ، وجاء « أشوكا » ورأى وأخذ العجب ؛ ولما استدار الملك ليأخذ طريقه إلى خارج السجن ؛ ذكره السجن بأمره ، قائلاً إنه لا يجوز له أن يغادر السجن حياً ؛ فحزت هذه الملاحظة في نفس الملك بقوتها ، وأمر بالسجان أن يقذف في إناء الماء الساخن .

ويقال إن « أشوكا » لما وصل إلى قصره ، نال من نفسه انقلاب عجيب ؛ وأمر من فوره أن يهدم السجن وأن يخفف قانون العقوبات ؛ وفي نفس الوقت جاءه النبأ بأن جنوده قد ظفروا بانتصار باهر على قبيلة « كالتنجا » الثائرة ، وأنهم قد فتكوا بألاف من الثائرين ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ؛ فجعل أشوكا عندئذ يعاني لذعات ضميره كلما طاف برأسه كل هذا « العنف والتقتيل وإبعاد الأسرى عن ذويهم » فأمر أن يطلق سراح الأسرى ، وردد إلى قبيلة « كالتنجا » أرضها ، وأرسل إلى أهلها اعتذاراً لم يسبق له في التاريخ مثيل ، ولم يقلده من بعده إلا القليل ؛ وبعدئذ التحق بالطائفة البوذية ، وليس مسوح الرهبان حيناً ، وأبطل الصيد وأكل اللحم ، واصطنع « السبيل الشريفة ذات الإرشادات الثمانية » (٣١) .

ولله ليستحيل علينا الآن أن نقول كم من هذه الأنبياء قد اختلقه الخيال اختلاقاً ، وكم منها تاريخ صحيح ؛ كما يستحيل علينا — والشقة بيننا وبين ذلك العهد بهذا البعد — أن نرى الدوافع التي حفزت الملك إلى ما فعل ؛ فيجوز أنه رأى البوذية تتسع انتشاراً ، وظن أن تعاليمها من تسامح وهدوء تصلح تشريعاً مفيداً لشعبه ، فتوفر على الدولة عدداً لا يحصى من رجال الشرطة ؛ وفي العام الحادى عشر من حكمه ، أخذ يصدر مرسومات هي أعجب ما عرفناه في تاريخ الحكومات ؛ وأمر أن تنقش هذه المرسومات على الصخور وعلى الأعمدة

في عبارة بسيطة وباللهجات التي يفهمها الناس ، حتى يتسنى لكل هندي يعرف القراءة أن يفهم فحواها ؛ ولقد عثرنا على « مرسومات الصخور » في كل جزء من أجزاء الهند تقريباً ، ولا تزال عشرة أعمدة باقية في مكانها ، وعرفنا أماكن عشرين أخرى ؛ وتقرأ هذه المرسومات فتجد أن الإمبراطور يوافق على العقيدة البوذية بمخالفها ، ويطبّقها في شأن من شؤون الناس هو آخر ما تتوقع لها أن تطبق فيه وأعنى السياسة ؛ وشبهه بهذا أن تعلن إمبراطورية حديثة فجأة أنها صممت منذ الآن فصاعداً أن تتبع المسيحية في سياستها .

وعلى الرغم من أن هذه المرسومات بوذية العقيدة ، فهي لا تبدوا لنا دينية خالصة ؛ فهي تفرض وجود حياة آخرة ، وهذا ترى كيف أنه لم يلبث تشكك بوذا أن زال ليحل محله عند أتباعه إيمان ، لكنها إلى جانب ذلك لا تورد في نصوصها عبارة تدل على العقيدة بإله مشخص ، بل لا تذكر الله ؛ نصوصها لإطلاقاً (٢٢) ، كلا ، ولا هي تذكر كلمة واحدة عن بوذا فهذه المرسومات لا تعنى باللاهوت ؛ فرسوم « سارنات » يطالب الناس بالسير على مقتضى قواعد الدين ، ويضع عقوبات لمن يشقون عليها عصا الطاعة (٢٣) ، أما سائر المرسومات فهي لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسامح الديني ؛ فعلى المرء أن يُحسّن إلى كهنة البراهمة كما يحسن إلى كهنة البوذيين سواء بسواء ؛ ولا ينبغي لأحد أن يسئ بالقول إلى عقيدة من العقائد ؛ ويعلن الملك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم ، فهو لن يفرق بينهم بسبب اختلافهم في العقيدة (٢٤) ، فهذا هو « مرسوم الصخر » رقم ١٢ يتحدث بما يكاد أن يكون معاصراً لنا من حيث سداد رأيه :

« إن جلالة الملك المقدس الرحيم يقدم لإجلاله للناس من شتى المذاهب ، سواء في ذلك الزاهدون أو أصحاب الأسر ، وهو يقدم لإجلاله هذا بالهدايا وغيرها من مختلف ألوان التوقير .

على أن جلالة الملك المقدس لا تعنيه كثيراً هذه الهدايا. وهذا التوقير الظاهر ، يقدر ما يعنيه أن ينمو في كل هذه العقائد لبثها وجوهرها ؛ ونمو هذا الجوهر وذلك اللب إنما يكون بطرائق شتى ، لكن أساسها جميعاً هو ضبط اللسان عن الكلام ، وأعنى بذلك ألا يبجل المرء عقيدته وألا يحط من شأن عقيدة غير عقيدته إلا بما يملكه العقل ؛ إن الحط من شأن العقائد الأخرى لا ينبغي أن يكون إلا لأسباب عقلية معينة ، ذلك لأن عقائد الناس على اختلافها جديرة بالاحترام لهذا السبب أو ذاك .

وبمثل هذا التصرف ، يرفع المرء من عقيدته ، وينفع في الوقت نفسه سائر العقائد ؛ وبالتصرف المضاد لهذا ، يؤذى المرء عقيدته ويضر عقائد الناس . . . . إن انسجام الأفراد أمر عظيم .

هذا إلى أن « مرسوم العمود الثاني » يلقي لنا ضوءاً أكثر على المقصود من « جوهر الموضوع » - وهي العبارة التي وردت في المرسوم الذي ذكرناه الآن - إذ يقول : « إن قانون التقوى شيء جميل ، لكن هم يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء ؛ ولكن يضرب « أشوكا » المثال لما يريد ، أمر موظفيه في كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم ، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى ، فلا يعذبوهم ولا يسجنوهم بغير مبرر معقول ؛ وأمر موظفيه أن يقرأوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب (٣٥) .

فهل كان لهذه الرسومات الخلقية أثر كائناً ما كان في إصلاح ساوك الناس ؟ يجوز أنها ساعدت على نشر فكرة « الأهمسا » - وهي عدم قتل الحيوان - كما شجعت على الامتناع عن أكل اللحم وشرب المسكرات بين الطبقات العليا من أهل الهند (٣٦) ؛ ويعتقد « أشوكا » اعتقاداً جازماً - شأنه في ذلك شأن المصلحين - أن لوعظه المنقوش على الحجر أبلغ الأثر ؛ وهو يعلن في « مرسوم الصخر » رقم ٤ ، أنه لمس بالفعل نتائج طيبة لرسوماته ، وربما أعان ملخصه على توضيح أساس مذهبه :

أما وقد اصطنع صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة أسباب التقوى في حياته ، فقد سكنت أصداء طبول الحروب ليهتز الهواء بأصداء القانون ... لقد امتنع الناس اليوم ، بفضل قانون التقوى الذي سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، عن ذبح الكائنات الحية ليقدموها في قربانهم ، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل ، امتنعوا عن قتل الأحياء ، وسلخوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاصلاً ، وكذلك إزاء البراهمة ، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به آباؤهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سناً ، على هذا النحو - وعلى غيره من الأنحاء الكثيرة - ازداد لإقبال الناس فوق هذه الزيادة .

إن أبناء صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، وأحفاده وأحفاد أحفاده ، سيعملون على زيادة اصطناع الناس لقانون التقوى ، زيادة تطرد إلى يوم الدين .

لكن الملك الصالح قد بالغ في تقوى شعبة وولاء أبنائه ، أما هو نفسه فقد بذل مجهوداً عظيماً في سبيل الديانة الجديدة ، فجعل من نفسه رئيساً لطائفة البوذية ، وأجزل لها العطايا ، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها (٣٧) وبنى باسمها في أرجاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان (٣٨) وأرسل مبشرين بالتحفيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وإلى جزيرة ميلان ، بل أرسل هاتيك البعوث إلى سوريا ومصر واليونان (٣٩) حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية (٤٠) ولم يمض بعد وفاته إلا زمن قصير حتى غادرت بعوث المبشرين بلاد الهند ليعظ رجالها بالتعاليم البوذية في التبت والصين ومنغوليا واليابان ، وبالإضافة إلى هذا النشاط الديني ، توجه « أشوكا » بحماسة نحو إدارة بلاده في شئونها الدنيوية ، فكان يطيل من ساعات العمل في يومه ، ولم تكن الحوائل لتتحول بينه وبين معاونيه ، فلهؤلاء أن يتصاو

يه في شئون الدولة في أى ساعة شاءوا (٤١) .

ونقيصته البارزة هي الأنانية ، فمن العسير أن تكون متواضعاً ومصلاً في آن معاً ، إن احترامه لنفسه يسطع في كل مرسوم من مراسيمه ، مما يجعله أحياناً « لمرقص أورليوس » (٤٢) في شتى الوجوه ، ولم يستطع أن يدرك أن البراهما كانوا يمتقون ، ويتربصون به الدوائر ليفتكوا به ، كما فتك كهنة طيبة بأخناتون قبل ذاك بألف عام ، ولم يقتصر مقتته على البراهمة الذين اعتادوا ذبح الحيوان من أجل أنفسهم ومن أجل آلهتهم ، بل جاوزهم إلى ألوف مؤلفة من الصيادين والسماكين الذين كرهوا المراسيم التي فرضت كل هذا القيود القاسية على قتل الحيوان ، حتى الفلاحون أخذوا يجأرون بالشكوى من الأمر الصادر « بالأبحرق قش الغلال خشية أن تحترق معه الكائنات الحية الكامنة فيه » (٤٣) ، فنصف الشعب في الإمبراطورية كان ينتظر موت « أشوكا » كما يرقب الإنسان تحقيق الأمل .

ويروى لنا « يوان تشوانج » أن رواة البوذيين يتناقله ن النبي بأن « أشوكا » في أخريات أعوامه ، أكره على النزول عن عرشه ، على يدي حفيده الذي فعل ما فعله بمعونة رجال البلاط ؛ وحرم الملك كل سلطاته شيئاً فشيئاً ، ووقف تيار الهدايا التي كان يمنحها للطائفة البوذية ، بل إن ما كان يسمح به « لأشوكا » من أشياء ، حتى الطعام ، نقص مقداره ، حتى بلغت به الحال أن أصبح نصيبه من الطعام في اليوم نصف ثمره من ثمار « الأمالاكا » ؛ ونظر الملك إلى نصف الثمرة نظرة حزينة ، ثم أرسلها إلى إخوانه البوذيين قائلاً إنها كل ما يملك مما يستطيع تقديمه إليهم (٤٤) ، لكن حقيقة الأمر هي أننا لا ندرى شيئاً عن أعوامه الأخيرة ، بل لا ندرى في أى سنة وافته منيته ؛ ولم يمض بعد موته إلا مدى جيل واحد ، حتى كانت إمبراطوريته — كإمبراطورية أخناتون — قد تقوض بنيانها ، وذلك أنه لما تبين أن نفوذ العرش في مملكة « مجاذا » كانت تسنده

(\*) حاكم روماني حكيم . (المعرب)

قوة الدفع القديمة أكثر مما تدعمه إدارة قائمة على قوة الحاكم ، فقد أخذت الدول التابعة له تعلن انسلاخها ، دهلة في إثر دهلة ، عن ملك الملوك في « باتالپترا » ؛ نعم إن سلالة « أشوكا » لبثت تحكم « مجازا » حتى القرن السابع الميلادى ، لكن أسرة « موريا » الحاكمة التى أنشأها « تشاندرأ جويتا » بلغت ختامها حين قتل الملك « برهادراذا » ، وإن ذلك لدليل على أن الدول لا تبغى على المثل العليا ، إنما ينهض بقيانها على طبائع الناس .

منى « أشوكا » بالفشل السياسى ، ولو أنه من ناحية أخرى قد أدى مهمة من أعظم المهام فى التاريخ ، ففي القرنين التاليين لموته ، انتشرت البوذية فى أرجاء الهند ، وبدأت غزوها لآسأ غزواً لا تراق فيه الدماء ؛ فإذا رأيت إلى يومنا هذا وجه « جوتاما » (\*) الهادى يأمر الناس من « كاندى » فى سيلان إلى « كاما كورا » فى اليابان ، أن يعامل بعضهم بعضاً بالحنفى ، وأن يجوا للسلام ، فاعلم أنه مما أدى إلى ذلك أن حاكماً ، وإن شئت فقل قديساً ، كتب له يوماً أن يتربع على عرش الهند .

(\*) هو بوذا . (المعرب)

## الفصل الثالث

### العصر الذهبي في الهند

عصر غروات - ملوك كوشان - إمبراطورية حوينا - رحلات  
 « فا - هين » - نهضة الأدب - قبائل الهون في الهند - هرشا  
 الكريم - رحلات يوانج تشوانج

منذ وفاة « أشوكا » إلى قيام إمبراطورية « جوبتا » - وهي مدة تكاد  
 تبلغ ستمائة سنة - نقل النقوش والوثائق الهندية قلة تجعل تاريخ هذه الحقبة  
 يضطرب بالغموض<sup>(٤٤)</sup> ؛ وليس هو بالضرورة عصرًا مظلمًا لقلة علمنا  
 بتاريخه ، فقد ظلت به جامعات عظيمة مثل جامعات « تاكسيلا » قائمة تنشر  
 العرفان ، كما أنه حدث في الجزء الشمالي الغربي من الهند إبان تلك الفترة أن  
 ازدهرت حضارة في إثر غزوة الإسكندر ، بتأثير الفرس في فن العمارة -  
 واليونان في فن النحت ؛ ففي القرنين الأول والثاني قبل المسيح ، نزحت  
 جموع من السوريين واليونان والسكيت إلى البنجاب ، ففتحوه وأقاموا فيه  
 هذه الثقافة « اليونانية البكترية » التي ظلت هناك ما يقرب من ثلاثمائة عام :  
 وفي القرن الأول مما تواضعنا فيما بيننا نحن الغربيين أن نسميه بالعصر المسيحي .  
 استولت قبيلة كوشان من قبائل أواسط آسيا ، وهي قبيلة تصلها وشائج القربى  
 بالأتراك ، استولت هذه القبيلة على « كابل » ، واتخذتها عاصمة نشرت منها  
 نفوذها في أرجاء الجزء الشمالي الغربي من الهند ومعظم آسيا الوسطى ؛ فتقدمت  
 الفنون والعلوم في عهد أعظم ملوكها « كانشكا » ، فهأهنا أنتج النحت « اليوناني  
 البوذي » مجموعة من أروع آياته ؛ كما أقيمت مباني جميلة في « پشاور » و « تاكسيلا »  
 و « ماثورة » وكذلك تقدم « تشاراكا » بفن الطب ؛ ووضع « ناجارچونا »  
 و « اشفاغوشا » الأسس التي قام عليها أحد المذاهب البوذية - هو مذهب

ماهايانا ، ومعناها العربية الكبرى - الذى ساعد « جوتاما » (\*) (على كسب الصين واليابان فى صف مذهبه ؛ وكان « كانشكا » متساعماً مع كثير من الديانات ، وجرب بنفسه كثيراً من الآلهة يعبدها ، حتى انتهى به الأمر أخيراً إلى اختيار البوذية الجديدة الأسطورية التى جعلت من بوذا إلهاً ، والتى ملأت أجواز السماء ببوذوات منتظرة وقديسين من أشباه بوذا ؛ ودعا إلى انعقاد مجلس عظيم من رجال اللاهوت البوذى ، ليصوغوا هذه العقيدة فيتسنى نشرها فى بلاده ، وأوشك أن يكون « أشوكا » آخر فى عمله على نشر العقيدة البوذية ، ودون هذا المجلس قواعد بلغ عددها ثلاثمائة ألفاً ، وهبط بالفلسفة البوذية إلى حاجات العاطفة عند النفس العادية ، ورفع بوذا نفسه إلى منزلة الآلهة .

وكان « تشاندر جويتا الأول » (وهو غير تشاندر جويتا موريا على الرغم من اتفاقهما فى الاسم والعدد الترتيبي) قد أنشأ حينئذ أسرة « جويتا » الحاكمة فى مجازا ، التى قوامها ملوك من أهل البلد أنفسهم ؛ وأتيح لخلفه فى الحكم ، وهو « سامندرا جويتا » أن يحكم خمسين عاماً فيجعل من نفسه ملكاً فى طبيعة ملوك الهند فى تاريخها الطويل ؛ وكان مما فعله أن نقل عاصمة الحكم من « باتاليپترا » إلى « أبوذيا » - التى هى الموطن القديم لـ « راما » - ذلك الشخص الأسطورى - ثم بعث بجيوشه الفاتحة ومحصلّى ضرائبه إلى بلاد البنغال وأسام ونبال والهند الجنوبية ، وأنفق ماتدفق عليه من أموال تلك الأفطار التابعة له ، فى النهوض بالأدب والعلم والدين والفنون ؛ بل برع هو نفسه ، فيما تخلل الحروب من فترات السلم ، فى الشعر والموسيقى ؛ وجاء بعده ابنه « فيكراماديتيا » (ومعناها شمس القوة) فوسّع من رقعة هذه الفتوحات الحربية والغزوات العقلية وأيد أديب المسرحية « كالداسا » وجمع حوله فى عاصمته « يوجين » طائفة ممتازة من الشعراء والفلاسفة والفنانين والعلماء والباحثين

حتى لقد بلغت الهند من التقدم في عهد هذين الملكين ذروة لم تكن قد تجاوزتها منذ بوذا ، كما بلغت في وحدتها السياسية مبلغاً لم تبلغ مثيله إلا في عهد « أشوكا » وعهد « أكبر » .

ونستطيع أن نتبع الخطوط الرئيسية في مدينة « جوبتا » من الوصف الذي قدمه « فارهين » عن زيارته للهند في مستهل القرن الخامس الميلادي ؛ وهو أحد البوذيين الكثيرين الذين جاءوا من الصين إلى الهند إبان هذا العصر الذهبي من تاريخها ؛ بل إن هؤلاء الحجاج الذين كانوا على الأرجح أقل عدداً من التجار والسفراء الذين طفقوا حينئذ - رغم ما يحيط بالهند من حواجز الجبال - يقدون إليها وقد اشتملها السلام ، يقدون إليها من الشرق والغرب ، بل يقدون إليها من روما النائية ؛ وكانوا في وفودهم إليها يجتلبون معهم عاداتهم وأفكارهم ، فسرعان ما تكون هذه الأفكار وتلك العادات الواردة من خارج حافزاً للبلاد على التغيير في أوضاعها ؛ جاءها « فا - هين » فألقى نفسه ، بعد أن تعرضت حياته للخطر أثناء مروره في الجزء الغربي من الصين ، آمناً في الهند أمناً لا يأتيه الخطر من أية ناحية من نواحيه ، فجعل يتنقل في طول البلاد وعرضها ، دون أن يصادفه من يعتدى عليه بالإيذاء أو بالسرقة<sup>(٤٥)</sup> ؛ وهو يخلدنا في يومياته كيف استغرق في طريقه إلى الهند ستة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه في الصين عن طريق سيلان وجاوه في ثلاثة أعوام<sup>(٤٦)</sup> .

ولأنه ليصف وصفاً يعبر به عن إعجابه بما كان للشعب الهندي من ثروة وازدهار وفضيلة وسعادة ، ومن حرية دينية واجتماعية ، ولقد أدهشته المدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها ، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيرها من مؤسسات الإحسان التي امتلأت بها أرجاء البلاد<sup>(\*)</sup> ؛ وعجب

(\*) سبقت هذه المستشفيات أول مستشفى شمهته أوروبا بثلاثة قرون ، وأعطى به « ميزون ديه Maison Dieu » الذي بنى في باريس في القرن السابع الميلادي<sup>(٤٧)</sup> .

لمجدد الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات والأديرة ، وللقصور الملكية الهائلة بعظمتها وفخامتها<sup>(٤٨)</sup> ؛ وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيه إلا مدينة فاضلة (بوتويا) ، إذا استثنيت عاداتهم في قطع الأيدي لبعض الآثمين .

« الناس كثيرون وسعداء ، فليس ثمة ما يلزمهم بتسجيل أفراد أسرهم ، ولا يضطرهم إلى المثول بين أيدي القضاة أو الاستماع إلى ما يستنون من قوانين ؛ ولم يكن بينهم من يدفع شيئاً سوى زراع الأرض الملكية ، فهؤلاء يدفعون جزءاً من غلة الأرض ؛ ولمن شاء أن يسافر أو يقيم حيث شاء ؛ والملك يحكمهم لا يقتل منهم أحداً ولا ينزل بأحد منهم عقاباً ، ولا يطالب المجرمون بأكثر من غرامة . . . وحتى في الحالات التي يتهم فيها الآثم بالثورة المتكررة التي يشق بها عصا الطاعة ، لم يكن يُحكّم عليه بأكثر من قطع يده اليمنى . . . واذهب حيث شئت من أرجاء البلاد جميعاً فلن تجد أحداً يقتل كائناً حياً ، أو يأكل البصل أو الثوم ، إذا استثنيت قبيلة « شاندا لا » . . . لهم في تلك البلاد لا يربون الخنازير والطيور الداجنة ولا يبيعون الماشية حيّة ، فلست ترى في أسواقهم دكاناً لقصّاب ولا حانوتاً لبيع المسكرات »<sup>(٤٩)</sup> .

ولم يكدهم « فا - هين » يلحظ أن البراهمة ، الذين كانوا من المغضوب عليهم لدى أسرة موريا الحاكمة منذ عهد « أشوكا » قد أخذوا يزدادون من جديد في ثرائهم ونفوذهم ، في ظل التسامح الذي أبداه ملوك أسرة « جويتا » ، فأحيوا تقاليدهم الدينية والأدبية التي كانت قائمة قبل العهد البوذي ، وأنهم كانوا يُطورون اللغة السنسكريتية بحيث تصبح هي لغة التفاهم المشتركة بين العلماء في أنحاء الهند كلها : فقد كتبت الملامحتان الهنديتان العظيمتان ، « ماهابهاراتا » و « رامايانا » في صورتها الحاضرة<sup>(٥٠)</sup> في ظل هؤلاء الملوك وبرعايتهم ؛ وكذلك بلغ الفن البوذي في عهد أسرتهن ذروة مجده في النقوش الموجودة بكهوف « أجانتا » ، وفي رأى عالم هندي معاصر أن « مجرد هذه الأسماء ؛ كاليداسا » و « فاراهامبيرا » و « جنافارمان » و « فاشوباندو » و « أريابهااتا »

و « براهما جوبتا » يكنى ليجعل عصرهم ذاك أوج الثقافة الهندية « (٥١) » ويقول « هافل » : « في وسع المؤرخ المحايد أن يقول في غير إجحاف إن أعظم فوز ظفرت به الإدارة البريطانية للهند هو أن تعيد لتلك البلاد كل ما كانت قد بلغت في القرن الخامس الميلادي » (٥٢) .

لكن هذا العصر الزاهر للثقافة القومية قد اعترضته موجة من غزوات الهون التي كانوا يجتاحون بها إذ ذاك آسيا وأوروبا ، فيدمرون حضارة الهند وحضارة روما على السواء حيناً من الدهر ؛ ففي الوقت الذي كان يجتاح فيه « أتلا » ربوع أوروبا ، كان « تورامانا » يستولى على « مالنوا » كما كان « ميهراجولا » الفظيع يُطوّح بملوك أسرة « جوبتا » من فوق عرشهم ؛ وهكذا لبثت الهند قرناً كاملاً تتدهور إلى عبودية وفوضى ؛ وبعدها جاء فرع من سلالة أسرة « جوبتا » ، هو فرع « هارشا - فارذانا » ، وعاد فاستولى من جديد على الهند الشمالية ، وابتنى عاصمة له في « كانوج » فأتاح لتلك المملكة المسيحية سلاماً وأمناً مدى اثنين وأربعين عاماً ، ازدهرت فيها مرة أخرى فنون البلاد وآدابها ؛ وتستطيع أن تصور لنفسك عاصمتهم تلك « كانوج » من حيث اتساعها وفخامتها وازدهارها ، إذا علمت هذه الحقيقة الآتية التي تعز على التصديق ، وهي أن المسلمين حين أتوا عليها بالتخريب (\*) (سنة ١٠١٨ ميلادية) دمروا عشرة آلاف معبد (٥٣) ، ولم تكن حدائقها العامة الجميلة وأحواش السباحة المجانية فيها ، إلا جزءاً ضئيلاً من حسنات الأسرة الجلديدة ؛ وكان « هارشا » نفسه أحد هؤلاء الملوك القلائل الذين يخلعون على الملكية مظهراً - ولو إلى حين - بحيث تبدو أفضل ألوان الحكم على اختلافها ؛ فقد كان رجلاً له بصره وله جوانب كثيرة من الثقافة ، فقرض شعراً وأنشأ مسرحيات لاتزال تقرأ في الهند حتى يومنا هذا ، على أنه لم يسمح لهذه الصغائر أن تتدخل في إدارته الحازمة لمملكته ، وفي ذلك يقول « يوان تشوانج » : « كان لا يعرف الملعب ، ويرى اليوم أقصر من أن يسدّ له مطالبه ، حتى لقد نسي النوم في إخلاصه لأعمال الخير التي كان يقوم بإنشائها » (٥٤) ولقد بدا في ديانته عابداً

(\*) هل كان ذلك « مخرباً » أم نشراً لدين جديد ؟ (المعرب)

لـ « شيفا » لكنه تجول بعدئذ إلى العقيدة البوذية ، وأصبح شيباً بـ « أشوكا » في حسناته التي صدر فيها عن تقواه ؛ فحرم أكل الحيوان ، وأقام محطات ينزل بها المسافرون في أرجاء ملكه جميعاً ، وأنشأ ألوف الأضرحة البوذية على ضفاف الكنج .

ويروى لنا « يوان تشوانج » - وهو أشهر البوذيين من أهل الصين - وقد زار الهند ، أن « هارشا » كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر ، كان يدعو إليه كل رجال الديانات على اختلافها ، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزين في مملكته ، وكانت عادته في هذا الاجتماع أن يحسن على ملاء من الناس بكل الفائض عن حاجته في خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسي الماضي ؛ ولكم دهش « يوانج » لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثواب الدقيقة النسيج والغلالات المشاة ، مكسباً أكواماً في ميدان مكشوف يحيط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص ، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية ، ثم يبدأ توزيع الصدقات في اليوم الرابع ( لو أخذنا بما يقوله هذا الحاج وإنه من العسير تصديقه ) ، وكانوا في ذلك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين ، ويقدّمون لكل منهم لؤلؤة وثياباً وأزهاراً وعطوراً ومائة قطعة من الذهب ، وبعدئذ يعطون البراهمة من الصدقات ما يكاد يبلغ هذا المقدار ، ثم يعطون الجانتيين صدقاتهم ، ثم يعقبون على ذلك بسائر العقائد الدينية وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين ، وكان التوزيع أحياناً يستغرق ثلاثة شهور أو أربعة ؛ وفي ختام الحفل يخلع « هارشا » عن نفسه أرديته الثمينة ومجوهراته ليضيفها إلى الصدقات (٥) .

وقد لنا مذكرات « يوان تشوانج » على أن الروح العقلي الذي ساد ذلك العظم كان روحاً من نشوة ذيلية ؛ وهو يرسم لنا بمذكراته صورة رائعة نغم عن شهرة الهند إذ ذاك في سائر الأقطار ، فهذا الفصيح الأزمتقراطي يغادر حياته المترفة الهينة في بلده النائي « تشانجان » ليعبر الصين الغربية التي لم تبلغ من الحضارة إلا مبلغاً ضئيلاً ، ويمر بطشقند وسمرقند ( التي كانت مدينة زاخرة إذ ذاك ) ، ثم يتسلق الهملايا ليدخل الهند ، يقيم ثلاثة أعوام يدرس دراسة المتحمس في جامعة الديبر بمدينة « نالاندا » ؛ ولما كان « يوان تشوانج » ذائع الصيت باعتباره عالماً وباعتباره إنساناً له مكانته الاجتماعية ، فقد توجه إليه أتراء الهند بالدعوات ؛ وسمع « هارشا » أن « يوان » كان في بلاط « كومارا » ملك أستام ، فدعا « كومارا » إلى زيارة « كانوج » مستصحباً « يوان » ، فرفض « كومارا » دعوته قائلاً إن « هارشا » يستطيع أن يفصل رأسه لكنه لا يستطيع أن يأخذ منه ضيقه ؛ فأجاب « هارشا » قائلاً : « إنني لا أفلتلك إلا ساعتاً في سبيل رأسك » وتجاه « كومارا » وغد ذلك أتعب « هارشا » بعلم « يوان » وأدبه ، وأمر بأغنيان البوذيين فاعتقدوا اجتماعاً أزعفوا فيه إلى « يوان » وهو يعرض عليهم مذهب « ماهايانا » ، « وعلقت « يوان » قائمة بأرائه على باب الرواق الذي أعده للاجتماع والنقاش ، وأضاف إلى تلك الآراء حاشية على طريقة ذلك العصر ، يقول فيها : « إذا وجد أحد من الحاضرين هنا غلطة في تسلسل آرائي ، واستطاع تفنيد قول من أقوالى ، فله أن يبتز رأسي عن جسدي » ، ودامت المناقشة ثمانية عشر يوماً ، استطاع خلافاً « يوان » ( هكذا يقول يوان نفسه ) أن يرد كل اعتراض ، وأن يصد شكل الزنادقة ( وهناك رواية أخرى تقول إن معارضية تختموا الاجتماع بإشعال النار في الرواق<sup>(٥٦)</sup> ) ، وبعد مغامرات كثيرة التمس « يوان » طريقه عائداً إلى بلده « تشانجان » حيث عمل امبراطورها المستنير على صيانة الآثار البوذية في معبد فاخر ، تلك الآثار البوذية التي أحضرها معه هذا الزخالة الورع ،

الذى يشبه «ماركوبولو» فى رحلاته ؛ ثم عين له طائفة من العلماء يعاونونه على ترجمة المخطوطات التى اشتراها من الهند (٥٧) .

ومع ذلك كله ، فقد كان هذا المجد الذى ازدهر به حكم «هارشا» مصطنعاً زائلاً ، لأنه كان يعتمد على ملك واحد بما له من قدرة وسخاء ، والملك يموت كما يموت البشر ؛ فلما مات ، اغتصب عرشه مغتصب وأبدى من الملكية وجهها الأقم ، وجاءت فى إثره الفوضى ، ثم دامت ما يقرب من ألف عام عانت الهند خلالها عصورها الوسطى - كما حدث لأوروبا - واجتاحها البرابرة ، كما غزاهم الغزاة ومزقوها وخربوها ، فما عرفت للسلم والاتحاد طعماً إلا حين أدركها «أكبر» العظيم .

## الفصل الرابع

### أبناء راجپوتانا

ساموراي الهند - عصر الفروسية - سقوط شيتور

كانت ملحمة راجپوتانا بمثابة السراج الذي أضواء «العصر المظلم» أمدأ قسراً ؛ ففي ذلك العهد قام في دويلات «موار» و «ماروار» و «عنبر» و «بيكانر» وكثير غيرها مما يرن بأسماء كهذه رنين النغبات ، قام في هذه الدويلات شعب خليط ، هو نتيجة تزواج الوطنيين بالسككيت والهنون الغزاة ، وأقام مدينة إقطاعية تحت سلطان طائفة من الأمراء المقاتلين الذين جعلوا همهم فن الحياة أكثر مما جعلوه حياة الفن ، وقد بدأوا بالاعتراف بسلطة الأسرتين الحاكمتين «موريا» و «جويتا» ، ثم انتهوا بعدئذ إلى الدفاع عن استقلالهم ، ثم الدفاع عن الهند بأسرها في وجه الجموع المحتشدة من المسلمين الذين جاءوها زاحفين ؛ وكانت قبائل هؤلاء الأمراء تتميز بشهامة عسكرية وشجاعة لا نعهدهما عادة في أهل الهند(\*) ؛ فلو جاز لنا أن تأخذ بما يقوله عنهم مؤرخهم «تود» المعجب بهم ، فكل رجل من رجالهم كان «كشاثرياً» جريئاً (الكشاثرية هي طبقة المقاتلين) وكل امرأة من نسايم كانت بطلة مقدامة ؛ بل إن اسم هذه القبائل ، وهو (أهل راجپوت) معناه «أبناء الملوك» ، فإن رأيتهم أحياناً يطلقون على بلادهم اسم «راجستان» فما ذاك إلا ليصفوها بأنها «مقر العصر الملكي» .

ولو نظرت إلى أبناء هذه الدويلات الباسلة لرأيت فيها كل ما جرينا على نسبته إلى «عصر الفروسية» من صفات الشجاعة والولاء والجمال والخصومات

(\*) لكن راجع ما يقوله «أريان» عن الهند القديمة ، إذ يقول : «إن الهنود في الحروب كانوا أشجع بكثير من سائر الأجناس التي كانت تسكن آسيا في ذلك الوقت» (٥٨) .

وقتل بعضهم بالسّم والاختيال والحروب ونخسوع المرأة وما إلى ذلك كله من عبث القول وتفخيم الوصف ؛ فيقول «تود» : «إن رؤساء راجپوت يتحلون بكل الفضائل التي عُرف بها الرجل من فرسان الغرب ، ثم هم يفوقونه بكثير في قدراتهم العقلية» (٥٩) « وكان لهم نساء جميلات لم يترددوا في الموت من أجلهن ، وكانت المجاملة وحدها تحمل هؤلاء النساء على أن يصبحن أزواجهن إلى القبر مصطنعات طقوس قومهم في هذا الشأن ؛ ومن هؤلاء النسوة فريق كان له حظ من التربة والتهديب ، كما كان بين الراجات شعراء وعلماء ، حتى لقد شاع بينهم حيناً من الدهر ضرب رقيق من ضروب التصوير بألوان الماء على النمط الفارسيّ الوسيط ، ولبثوا قرونًا أربعة يزدادون في ثرائهم حتى بلغوا منه حدًا استطاعوا معه أن ينفقوا عشرين مليوناً من الريالات على تزيين ملك الموارين (٦٠) .

وكان موضع فخرهم هو نفسه مآساتهم ، وذلك أنهم كانوا يمارسون القتال على أنه أعلى ما تسمو إليه الفنون ، لأنه الفن الوحيد الذي يليق بالسيد من أهل راجپوت ولقد مكنتهم هذه الروح الحربية من الصمود للمسلمين في بسالة يسجلها التاريخ (\*) ، لكن هذه الروح الحربية نفسها جعلت دويلاتهم الصغيرة على حال من الانقسام والضعف الناشئ من مقاتلة بعضهم بعضاً ، بحيث لم تعد شجاعتهم كلها قادرة على صيانة كياناتهم في نهاية الأمر ؛ وتقرأ ما يقوله «تود» في وصف سقوط شيتور - وهي إحدى عواصم الراجپوت - فتقرأ وصفًا لا يقل في خياله الشعري عن أية أسطورة من أساطير «أرثر» أو «شلمان» ، ولما كان هذا الوصف مستمدًا من مصدر واحد ، وهو ما قاله المؤرخون الوطنيون الذين دفعهم إخلاصهم لوطنهم أن يجيدوا عن الصدق

(\*) يقول الكونت كيسلرنيج عن شيتور : « إن نجد على ظهر الأرض مكاناً شهد ما شهد هذا البلد من بطولة وفروسية وشهامة في مواجهة الموت » (٦١) .

فما رويوا ، فلا شك أن هذه الأنباء العجيبة ، « أنباء راجيستان » ، يجوز أن تكون ذات نزعة أسطورية تقرّبها من « موت أرثر » (\*) أو « أنشودة رولان » وفي رواية هؤلاء المؤرخين أن الفاتح المسلم علاء الدين لم يطلب شيتور لذاتها ، بل سعيماً للحصول على الأميرة « بودميني » (\*\*\*) — « وهذا لقب تلقب به من كانت فائزة بجالها فتنة ليس بعدها مزيد » — وقد عرض الرئيس المسلم أن يرفع الحصار عن شيتور إذا قبل القائم بالحكم فيها نيابة عن الملك أن يسلم له الأميرة ، فلما رفض طلبه هذا ، عاد علاء الدين فعرض أن ينسحب إذا أتيح له أن يرى « بودميني » ، وأخيراً وافق على الرحيل إذا مكّن له من رؤية « بودميني » في مرآة ، لكنهم أبوا عليه حتى هذا ، وبدل أن يجيبوا له رجاءه تضافرت نساء شيتور وانضممن إلى صفوف الدفاع عن مدينتهن ، فلما رأى أهل راجپوت زوجاتهم وبناتهم يمتن إلى جوارهم ، لبثوا يقاتلون حتى فنى آخر رجل من رجالهم ، حتى إذا ما دخل علاء الدين المدينة ، لم يجد داخل أبوابها أثراً واحداً من آثار الحياة البشرية ، فقد مات رجالها جميعاً في ميدان القتال ، وأحرق زوجاتهم أنفسهن مصطنعات تلك الطقوس الخفيفة التي كانت تعرف عندهم باسم « جوهور » (٦٣) .

(\*) هاتان قصيدتان مشهورتان من نتاج المصور الوسطى في أوروبا . (المغرب)

(\*\*) هذه القصة لم ترد إلا في المصادر الهندية ، وإنه لمن الخطأ الادعاء أن مثل هذا الباعث المنحرف كان من دوافع فتح بعض أقاليم الهند . (الإدارة الثقافية)

## الفصل الخامس

### الجنوب في أوجه

مالك الدكن - فوجايا ماجار - كرشنا رايا - مدينة  
عظمى في العصر الوسيط - القوازين - الفنون -  
الدين - بأساة

كلما تقدم المسلمون في الهند تراجعت الحضارة الهندية نحو الجنوب خطوية  
بعد خطوة ، حتى إذا ما دنت هذه العصور الوسطى من ختامها ، كانت الدكن  
قد باتت بين أرجاء الهند تنتج أسمى ما تنتجه الحضارة الهندية ؛ وكانت قبيلة  
« شاليوكا » قد استطاعت أن تكون نفسها مملكة مستقلة لبثت قائمة حيناً من  
الدهر ، تمتد عبر الهند الوسطى ، وكان لها من القوة والمجد في عهد « پولاكشين  
الثاني » ما تمكنت به من أن تهزم « هارشا » وأن تجذب إليها « يوان تشوانج »  
وأن تظفر من « خسرو الثاني » ملك الفرس بسفارة محترمة ؛ وكذلك تمت في  
عهد « پولاكشين » وفي أرض مملكته أعظم التصاوير الهندية ، وأغنى بها  
نقوش أجاننا ؛ ثم أستقط « پولاكشين » عن عرشه ملك الفلاويين  
الهدى لبث حيناً قصيراً أعظم قوة في الهند الوسطى ؛ وأما في أقصى الجنوب  
فقد أقام « البانداويون » ملكاً في عهد مبكر يقع في القرن الأول الميلادي ،  
ويشتمل على « مدراس » و« تينقلي » وبعض أجزاء « ترافانكور » ؛ وقد جعلوا من  
« مادورا » بلداً من أجمل بلدان الهند في العصر الوسيط وزينوها بمعبد شامخ  
ومبثات من الآثار المعمارية الفنية الصغرى ؛ ودار الزمن دورته فإذا هم كذلك  
يُسْتَلُّ عروشهم على أيدي « الكوليين » أولاً ثم على أيدي المسلمين بعد ذلك ؛  
وأما « الكوليون » فقد بسطوا سلطانهم على الجزء الواقع بين « مادورا »  
و« مدراس » ومن ثم مدوا أرجاءه تجاه الغرب إلى « ميسور » ؛ ويمتد تاريخهم

إلى عهد بعيد في التّيدَم ، إذ ترى اسمهم المذكوراً في مراسيم « أشوكا » لكننا لا ندرى عنهم شيئاً حتى القرن التاسع حين بدعوا شوطاً طويلاً تملؤه الغزوات التي جاءتهم بأموال الجزية من الهند الجنوبية كلها بما في ذلك جزيرة سيلان ؛ ثم اضمحل سلطانهم وانطوا تحت حكم أعظم الدويلات الجنوبية ، وهي دولة « فيجاياناچار » (\*).

إن « فيجاياناچار » - وهو اسم يطلق على مملكة وعلى عاصمتها معاً - مثل « حزين يساق للمجد الذي يعنى عليه النسيان : وقد كانت في أيام عزها تشتمل على الدويلات التي يحكمها الأهليون اليوم في جنوبي شبه الجزيرة ، كما تشتمل على ميسور وعلى اتحاد مدراس بكل أجزائه ؛ وحسبك إذا أردت أن تتصور ما كان لها من سلطان و ثراء ، أن تتذكر أن ملكها « كرشنارايا » زحف إلى موقعة تاليكونا بجيش قوامه ٧٠٣,٠٠٠ من المشاة و ٣٢,٦٠٠ من الفرسان ، و ٥٥١ فيلاً يصحبهم ما يقرب من مائة ألف من التجار والبغايا وغير هؤلاء وأولئك ممن كانوا يصحبون معسكرات الجند في ذلك العصر إذا مزحف الجيش في غزواته (٦٣) وقد حصدت من أوتقراطية الملك قنّدر من الاستقلال الذاتي التمتع به القرى ، كما حصدت منها كذلك ملوك كانوا يظهرون آنأ بعد آن ، يتميزون من سواهم بعقولهم المستنيرة وقلوبهم الرحيمة .

ولك أن تقارن « كرشنارايا » الذي حكم « فيجاياناچار » بمعاصره هنري

(\*) في هذه المجموعة المتباينة من الممالك التي نكاد نسي ذكرها اليوم ، ترى ذرات من الخلق الأدبي والفني ، ومن الخلق المعاري بصفة خاصة ؛ فقد كان لها عواصم غنية وقصور فاخرة وملوك أتوياء ؛ لكننا إزاء الهند برقمتها الفسيحة وبتاريخها الطويل ، لا يسعنا في هذه الفقرة المردحة بذكر الحوادث ، إلا أن نمر برجال كانوا يطون في عهودهم أنهم سادة الأرض كلها ، لا يسعنا إلا أن نمر برجال كهؤلاء دون أن نذكر أسماءهم ؛ نخذ لذلك مثلاً « فكراماديتيا » الذي حكم الشاليركيين مدى نصف قرن ( ١٠٧٦ - ١١٢٦ ) فقد باغ من التوفيق في حروبه حداً جعله يفكر ( مثل نيتشه ) في أن يضع للعالم تاريخاً زمنياً جديداً يقدم التاريخ كله إلى ما قبل حكمه وما بعد حكمه ؛ ومثل هذا الرجل قد أصبح اليوم حاشية تذكر في هامش الكتاب .

الثامن مقارنة ستكشف لك عن تفوقه على هنرى الثامن الذى ما فىء محباً للنساء لأنك سترى فيه ملكاً أنفق حياته فى العدل والرحمة ، وبسط كفه بالإحسان الغزير ، وتسامح إزاء الديانات الهندية ، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدھا ، وكان كريماً مع من سقط فى يديه من أعدائه فعفا عنهم ولم يمس مدنهم بسوء ، وانصرف بجهدہ كله حتى الإفراط ، إلى شئون الحكم ، ولقد كتب مبشّر برتغالى - هو دومنيجوز پيز سنة ١٥٢٢ - فوصفه بقوله :

« إنه بلغ أقصى ما يمكن لملك أن يبلغه من الهيبة والكمال وهو ذو مزاج بهيج وشديد المرح ، ومن صفاته أنه لا يألو جهداً فى تكريم الأجانب وفى الحفاوة بهم ... إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل ، ولكنه يثور بالغضب فجأة حيناً بعد حين . . . وهو بحكم منزلته من أسبى منزلة من سائر الحاكين ، لما له من جيوش وسعة سلطان ، لكنه فيما يبدو لم يكن فى واقع الأمر يحظى بما كان ينبغي لرجل فى مثل مكانته أن يحظى به ؛ فهو من الشهامة والكمال فى كل شيء بمكان » (٦٤) (\*) .

وربما كانت العاصمة التى تأسست سنة ١٣٣٦ أغنى مدينة عرفتها الهند حتى ذلك الزمان ؛ زارها « نيكولوكوتى » حول سنة ١٤٢٠ فقدر محيطها بستين ميلاً ، ووصفها « پيز » فقال لأنها « فى اتساع روما وتراها العين ترى جمالاً خلاباً » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن بها أحراشاً كثيرة من الشجر وقنوات مائية عدة » ذلك لأن مهندسيها قد أقاموا سداً ضخماً على نهر تنجابادرا وأنشأوا بذلك خزاناً ينتقل الماء منه إلى المدينة بقناة طولها خمسة عشر ميلاً ، وقد كان الخزان منحوتاً فى صخر أصم مدى عدة أميال ؛ وقال « عبد الرزاق » الذى شهد المدينة سنة ١٤٤٣ إن فيها « ما لم تر مثله فى أى جزء من أجزاء العالم عين ولا سمعت بمثله أذن » واعتبرها « پيز » « أوفر بلاد الدنيا مؤونة . . . ففيها من كل شيء وفرة » ويروى لنا أن عدد دورها قد أرى على مائة ألف ،

(\*) كان بين هذه المقننات المتواضعة اثنتا عشرة ألف زوجة (٦٥) .

يسكنها نصيف مليون من البشر ، ونراه يدهش لتقصير من قصورها كإنت  
غيو غيرة بنيت كلها من العاج ، « لأنها من الثراء والجمال بحيث يكاد يستحيل  
أن تجد لها ضرباً في أى مكان آخر » (٦٦) .

ولما تزوج « فيروز شاه » سلطان دلهى من ابنة ملك « فيجاياناچار »  
في عاصمة هذا الأخير ، فرشت الطرقات لمسافة ستة أميال بالخمّل والحريز  
ورقائق الذهب وغير ذلك من المواد النفيسة (٦٧) ، لكن أذكر مع ذلك أن كل  
رحالة كذاب .

وإذا ما نتمدّت ببصر وراء هذا الستار من الغنى ، وجدت شعباً من عبيد  
وفعالة يعيشون في مسغبة وخرافة ، ويخضعون لتشرع اصطنع القسوة الوحشية  
ليصون بين الناس ضرباً منشوداً من ضروب الأخلاق التجارية ، فكان  
العقاب يتراوح بين قطع الأيدي أو الأقدام وقذف المذنب إلى الفيلة وجد  
رأسه ووضعها حياً على قضيب مدبب ينفذ خلال معدته ، أو تعليقه على مشبك  
من أسفل ذقنه وتركه هكذا حتى يموت (٦٨) ، وهذه العقوبة الأخيرة كانت  
تنزل بالمغتصب أو بالسارق الذى يعمد في سرته ، وكان البغاء مسموحاً به ،  
تنظمه القوانين بحيث تجعل منه مورداً من موارد العرش ، ويقول « عبد الرزاق »  
إنه رأى « أمام دار السكة ديوان عميد المدينة الذى قيل عنه إنه يهيم على اثنى عشر  
ألفاً من رجال الشرطة ، الذين تدفع لهم رواتبهم . . . مما يجي من مواخير  
البغاء ، وإنه لما يعز على الوصف تصوير فخامة هذه الدور وجمال أهليتها من  
الفاتكات بالقلوب ، وما لها من فنية الحديد وحلاوة الغزل (٦٩) » ، وقد كان  
للمرّة عندهم منزلة دنيا ، وكان عليها أن تقتل نفسها عند وفاة زوجها ،  
فكانوا يتركونها أحياناً لتلقى بنفسها حية في القبر (٧٠) .

وازدهر الأدب في عصر « ملوك الرايا » — أى ملوك فيجاياناچار —

ازدهر مكتوباً بالسندسكربتية القديمة وبلهجة « تلوجو » التي ينطق بها أهل الجنوب ؛ وكان « كرشنارايا » نفسه شاعراً كما كان راعياً سيخياً للإداب ، وإنهم ليضعون أمير شعرائه « آلاساني پدانا » في الرعي الأول من شعراء الهنـد كلها ؛ وكذلك ازدهر التصوير وفن العمارة ، فشيـدت المعابد الضخمة ، وزينت في كل جزء من أجزائها تقريباً بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت البوذية قد فقدت سلطانها على الناس ، وحل محلها ضرب من البراهمة التي يقدس « فشنو » قبل تقديمها لغيره من الآلهة ، وكانت البقرة عندهم مقدسة فلا تمهد إليها أيديهم بالذبح ، ولهم أن يقدموا قرابين من ضروب الماشية الأخرى ومن الطيور الداجنة ، كما كان لهم أن يأكلوا لحوم هذه الصنوف ، وبالجملة كان الدين قاسي الأحكام على حين كانت أخلاق التعامل بين الناس على شيء من التهذيب .

لكن هذا السلطان كله وهذا الترف قد انمحي بين عشية وضحاها ، وأخذ المسلمون الغزاة يشقون طريقهم رويداً رويداً أصوب الجنوب ، وتحالف سلاطين « بيچاپور » و « أحمد ناجار » و « جولكوندا » و « بنار » فركزوا قواهم جميعاً ليخضعوا هذا المعقل الأخير الذي تحصن فيه ملوك الهند الوطنيون ، والتقت جيوشهم المتحالفة بجيش « راماراجا » الذي يبلغ عدده نصف المليون في موقعة « تاليكوتا » وكان الغلب للمغربين بسبب كثرة عددهم ، ووقع « راماراجا » في الأسر وقطع رأسه من مرأى من أتباعه ، فدب الرعب في أنفس هؤلاء الأتباع ولاذوا بالفرار ، ولكن عدداً يقرب من مائة ألف منهم قتل في طريق الفرار حتى اصطبغت بدمائهم مجارى الماء ؛ وراح الجنود الفاتحون ينهبون العاصمة الغنية ، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث « أصبح كل جندي بسيط من جنود الجيوش المتحالفة غنياً بما ظفـره من ذهب ومجوهرات ومتاع وخيام وسلاح وجياد ورقيق<sup>(٧١)</sup> » ودام النهب خمسة أشهر ، جعل الظافرون خلالها يفتكون بمن لا حول لهم من الأهالي في وحشية لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وراحوا يفرغون المخازن والدكاكين ، ويقوضون المعابد

والقصور ، وبذلوا ما استطاعوا من جهد لإبلاغ كل ما تحويه المدينة من تماثيل وتصاوير ؛ وبعدئذ جاسوا خلال الشوارع يحملون المشاعل الموقدة فيشعلون النار في كل ما يصلح وقوداً للنار ، حتى إذا ما غادروا المدينة آخر الأمر ، كانت « فيجاياناچار » قد باتت خراباً بلقماً كأنما زلزل زلزلاً فما أبقى منها حجراً على حجر ؛ وهكذا كان الدمار فظيماً لم يُسبق على شيء ، يصور أدق تصوير غزو المسلمين لاهند ، ذلك الغزو الشنيع الذي كان قد بدأ قبل ذلك بألف عام ، وبلغ حينئذ ختام مراحلها (\*) .

---

(\*) هذه صورة رسمها بالطبع كاتب لا ينظر إلى الموقف نظرة من يحسب حساباً لديانة جديدة تنشر ، فما هو في رأيه فظاعة وبشاعة قد يكون في حقيقته أشمة ضوء جديد ينفذ خلال الظلام فيقشعه . (المغرب)

# الفصل السادس

## الفتح الإسلامي (\*)

إسماعيل الهند - محمود الغزنوي - سلطنة دلهي -  
مخراعاتها الثقافية ، سياستها الوحشية - عبوة الباربع الهندى

لعل الفتح الإسلامي للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطيخاً بالدماء (\*\*\*) ؛ وإن حكاية الفتح لما يبعث اليأس في النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدنية مضطربة الخطى ، وأن مركزها الرقيق الذي قوامه النظام والحرية ، والثقافة والسلام ، قد يتحطم في لحظة على أيدي جماعة من الهمج تأتي من الخارج غازية (+) ؛ أو تتكاثر في الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتنّان في عضدهم ، واتخذوا لأنفسهم البوذية والجانانية ديناً ، فأخذ مثل هذا الدين جذوة الحياة في قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاققتها ؛ ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثروتهم وحرّيتهم من طوائف السُّكَّيت والهُون والأفغان والأترك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها ، فكأما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغرى الفاتحين بفتحها ، حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر .

وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التي تقع في الجزء الغربي من البنجاب (سنة ٦٦٤ م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم في وادي نهر السند في نحو الوقت الذي

(\*) في هذا الفصل تحامل ظاهر على الفتح الإسلامي للهند ، لكننا مضطرون إلى تركه كما هو ليتناولوه المؤرخون بالرد ، وليقرأه الفارثون قراءة النقد لا قراءة التسليم . (المعرب)

(\*\*) إن المصح العلمي الأمين يرفض مثل هذه الإطلاقات ، ويرفض استعمال أفعال التفضيل بهذه البساطة ، وإلقاء القول على عواهنه دون بيئة حاضمة أكيدة . . . وليس من المنتظر أن يكون هناك حرب دون دماء ، وقد شهد التاريخ في أزمة وأمكنة متعددة ، حتى في العصر الحديث سفك دماء أكثر مما سفك في الفتح الإسلامي للهند . . .

(+) إن حقائق التاريخ تعرف أن المسلمين حين فتحوا الهند لم يكونوا « جماعة من الهمج » ولو كانوا كذلك لما تركوا آثارهم الواضحة على حضارة الهند ، مما أوضحه كبار مشيخ الهنود من غير المسلمين مثل الزعيم نهرو في كتاباته التاريخية . (الإدارة الثقافية)

كان زملاؤهم في الدين يقاتلون في الغرب موقعة « تور » ( ٧٣٢ م ) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوروبا ، على أن الفتح الإسلامى الحقيقى للهند لم يقع إلا بعد نهاية الأعوام الألف الأولى من التاريخ الميلادى .

فى سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ الأتراك يسمى محمود سلطنة دولة صغيرة ؛ تقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان ، وهى دولة غزنة ؛ وأدرك محمود أن ملكه ناشئ و فقير ، ورأى الهند عبئاً الحدود بلداً قديماً غنياً ، ونتيجة هاتين المقدمتين واضحه ؛ فزعم لنفسه حماسة ديدية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاحت الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التى تطمع فى الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين أخذاً إياهم على غرة فى « سيمناجار » فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معهم كنوزاً تراكت هناك على مر القرون ؛ حتى إذا ما عاد إلى غزنة ، أدهش سفراء الدول الأجنبية بما أطلعهم عليه من الجواهر والبلالىء غير المتقوبة والياقوت الذى يتلأأ كأنه الشرر ، أو كأنه النبيل بحمده الثلج ؛ والزمررد الذى أشبهه غصون الريحان الياقة ، والماس الذى مائل حب الرمان حجماً ووزناً (٧٢) . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملاً خزائنه بالغانم ، وأمع رجاله بما أطلق لهم من خربة النهب والقتل ، حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان ؛ وفى « هاتوره » ( على بُحْته ) أخذ من المعبد تماثيله الذهبية التى كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنه من مكنونها الذى كان يتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ؛ وأعجبه فن العمارة فى ذلك الضريح العظيم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلف مائة مليون دينار و عملاً متصلًا مدى قرنين ، فأمر به أن يغمس فى النفط ، وأن يترك طعاماً للنار حتى أتت عليه (٧٣) ، وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أبحرى تقع فى شمال الهند ، وهى مدينة « سمته » فقتل سكانها جميعاً وعددهم خمسون ألف نسمة ، وحمل كنوزها إلى غزنة ؛ ولعله فى نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ ؛ وكان أحياناً يبنى على سكان المدن المنهوبة ليأخذهم معه إلى وطنه فيبيحهم هناك رقيقاً ، لكن هؤلاء

الأستري بلغوا من الكثرة حداً أدى بهم إلى البوار بغد بضعة أعوام ، بحيث يتعذر أن تجد من يدفع أكثر من شلنات قليلة ثمناً للعبد من هؤلاء ؛ وكان محمود كلما هم بعمل حربى هام ، تجتأ على ركبتيه مصلياً يدعو الله أن يبارك له فى جيشه ، وظل يحكم ثلث قرن : فلما جاءته منيته ، كان قد أقتله السنون ودواعى الفخار ، فوصفه المؤرخون المسلمون بأنه أعظم ملوك عصره ، ومن أعظم الملوك فى كل العصور (٧٤) .

فلما رأى سائر الحكام المسلمين ما خلعه التوفيق من جلال على هذا اللص (\*) العظيم ، حذوا حذوه ، ولم يستطع أحد منهم أن يبره فى خطته ، وفى عام ١١٨٦ قامت قبيلة تركية من الأفغانستان ، وهى قبيلة الغوريين ، بغزو الهند والاستيلاء على دلهى ، وخربوا معابدها وصادروا أموالها ونزلوا بتحصورها ليؤسسوا لأنفسهم بذلك سلطنة دلهى - وهى سلطنة استبدادية وفدت إلى البلاد من خارج ، وتجمت على شمال الهند ثلاثة قرون ، لم يخفف من غيبتها إلا حوادث الاغتيال والثورة ؛ وكان أول هؤلاء السلاطين الأثراوهو « قطب الدين أيبك » الذى يعد نموذجاً سوياً لنوعه - فهو متوس فى تحصينه غايظ القلب لا يعرف الرحمة ؛ ويروى لنا عنه المؤرخ المسلم فيقول إن عطاياه « كانت توهب بمئات الألوف ، وقتلاه كانوا كذلك يهدون بمئات الألوف » فى قصر واحد ظفر به هذا المحارب (الذى كان قد بيع عبداً) « وضع فى أغلال الرق خمسين ألف رجل واسودت بطاح الأرض بالهنود» (٧٥) ؛ وكان « بلبان » - وهو سلطان آخر - يعاقب الثائرين وقطاع الطرق برهيم تحت أقدام القيلة ، أو يزرع عنهم جلودهم ، ثم يحشو هذه الجلود بالقش ويعلقها على أبواب دلهى ؛ ولما حاول بعض السكان المنغوليين الذين كانوا قد استوطنوا دلهى واعتنقوا الإسلام ، أن يقوموا بثورة ، أمر السلطان علاء الدين (فاتح شيتور) بالدكور جميعاً - ويقع عددهم بين خمسة عشر ألفاً وثلاثين ألفاً

(\*) إن شريعة الحرب تجوز إضعاف العدو مادياً ومعنوياً بكل سبيل ، وليس من الإنصاف تلوين الفتيح الإسلامى للهند بأنه كان سلباً ونهباً مطلقاً فى هذا الموضع ، إن وصفت السلطان الغزنوى بهذا الوصف هو غير هذا الفاتح العظيم .  
(الإدارة الثقافية)

— فقتلوا في يوم واحد ؛ وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح في عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق ، فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية ، ولكنه مع ذلك بز أسلافه في سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من ابن أخ له ثاراً عليه طعاماً أرغم زوجة القتييل وأبناءه على أكله ؛ وأحدث في البلاد تضخمًا ماليًا باستهتاره فجلب الدمار إلى البلاد ، وتركها خراباً بما أجراه فيها من نهب وقتل ، حتى لقد لاذ سكانها بالفرار إلى الغابات ، ولقد أوغل في قتل الهنود حتى قال عنه مؤرخ مسلم : « إن أمام رواقه الملكي وأمام محكمته المدنية لم يتخلُ المكان قط من أكذاس الجثث ، حتى لقد مل الكناسون والجلادون ، وأنعمهم جثراً الأجساد — أجساد الضحايا — لأعمال القتل فيهم زرافات » (٢٦) ؛ ولما أراد أن ينشئ عاصمة جديدة في « دولة أباد » أخرج سكان دلهي من بلدتهم لم يبق منهم أحداً ، ونحلف المدينة فقراً يباباً ، وسمع أن رجلاً أعمى قد ظل مقياً في دلهي . فأمر به أن يُجرَّ على الأرض من العاصمة القديمة إلى العاصمة الجديدة ، ولما بلغوا بالمسكين آخر رحلته لم يكن قد بقي من جسده إلا ساق واحدة (٧٧) وشكا السلطان من نفور الشعب منه وهلم باعترافهم بعدله الذي لم ينحرف عن جادة السبيل .

وظل يحكم الهند ربع قرن ثم وافته منيته وهو في فراشه ، وتبعه « فيروز شاه » فغزا البنغال ، ووعد أن يكافئ كل من جاءه برأس هندي ، حتى لقد دفع في ذلك مكافآت عن مائة وثمانين ألفاً من الرءوس ، وأغار على القرى الهندية طلباً للرفيق ، ومات وهو شيخ معمر ، بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وجاء السلطان أحمد شاه ، فكان يقيم الحفلات ثلاثة أيام متوالية كلما بلغ القتلى في حدود ملكه من الهنود العزّل عشرين ألفاً في يوم واحد (٧٨) .

وكثيراً ما كان هؤلاء الحكام رجلاً ذوى قدرة ، كما كان أتباعهم يمتثلون بيسالة جريئة ونشاطاً ، وبغير هذا الفرض فيهم لانستطيع أن نفهم كيف أتيج

لهم أن يصونوا ملكهم وسط شعب مُعَادٍ لهم ويفوقهم عدداً بنسبة كبيرة ؛ وكانوا جميعاً مسلحين بعميدة حربية النزعة لكنها أسمى بكثير في توحيدها الجاد من كل المذاهب الدينية الشائعة إذ ذلك في الهند ؛ ولقد عملوا على طمس ما لعقيدتهم تلك من ظاهر جذاب ، بأن أرغوا الهنود على عدم القيام بشعائر دينهم علناً ، وبهذا مهدوا للهنود طريق الانغماس في صميم الروح الهندية إلى أعماقها ؛ وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدن العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة ، فرَعَوَا الفنون وهينوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة — وهؤلاء عادة من أصل هندي — بأن استخدموهم في بناء المساجد والأضرحة الفخمة ؛ وكذلك كان بعضهم علماء يتمتعهم أن يجاوروا المؤرخين والشعراء ورجال العلوم ، ولقد صحب محموداً الغزنوي إلى الهند عالم من أعظم علماء آسيا وهو البيروني ، وهناك كتب استعراضاً علمياً عن الهند قريب الشبه بكتاب « التاريخ الطبيعي » لمؤلفه ( پلنى ) . وكتاب « الكون » « الهيبولت » وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ، ولم يقلوا عنهم في حبههم لسفك الدماء والحرب ؛ وأما السلاطين فقد ابتزوا من الشعب كل ما في استطاع الناس أن يدفعوه من مال على سبيل الجزية ، واصطنعوا في ذلك الوسائل العتيقة في فرض الضرائب ، كما لجأوا أيضاً إلى السرقة الصريحة ، لكنهم كانوا يقيمون في الهند وينفقون غنائمهم تلك في الهند ، فأعادوا إلى الحياة الاقتصادية في الهند ما استلبوه منها ؛ ومهما يكن من أمر فقد كانت وسائلهم الإرهابية واستغلالهم للناس مما زاد من إضعاف « اللبنة الهندية وإضعاف الروح المعنوية بين الهنود ، وهو إضعاف عمل عليه قبل ذلك مناخ البلاد المنهك للقوى وقله ما يأكلونه من طعام ، وتمزق البلاد من الوجهة السياسية والنظرة المتشائمة التي توحى بها دياناتهم .

وقد رسم علاء الدين تحطيظاً واضحاً للسياسة التي جرى عليها السلاطين في

معظم الأحيان . وذلك أنه طلب إلى مستشاريه أن يسنوا « قواعد وقوانين يكون من شأنها أن تسحق الهنود سحقاً ، وأن تسلبهم تلك الثروة وهاتيك الكنوز التي كانت تولد في نفوسهم البغضاء والثورة » (٨٠) ؛ فكانت الحكومة تستولى على نصف مجموع المحصول الزراعى ، بعد أن كان الحكام الوطنيون قبل ذلك يستولون من ذلك المحصول على سدسه فقط ؛ يقول مؤرخ مسلم : « لم يستطع هندي أن يرفع رأسه ، ولم تكن لترى في دورهم أثراً للذهب أو لفضة ... بل لم تكن لترى هناك شيئاً مما يزيد عن ضرورات الحياة ... وكانوا يجبرون على دفع الضريبة باللطعات وتقييد الأقدام والشد بالأغلال والزج في السجن » ، وكان علاء الدين إذا ما احتج أحد مستشاريه على سياسته هذه أجابه بقوله : « أيها الفقيه ، إنك متبحر في العلم لكنك خلو من الخبرة ، أما أنا فلا علم عندي لكنى رجل محنك ؛ فكن على يقين أن الهنود لن يذلوا أو يطيعوا حتى نزل بهم الفقر ، ولهذا أصدرت أمرى بالألأ يترك في أيديهم إلا للضرورة لحفظ الحياة مما يجمعونه عاماً بعد عام من محصول الغلال والبن والجن ، وألا يسمح لهم قط بادخار الأموال والأملال » (٨١) .

وفي هذا سر التاريخ السياسى للهند الحديثة ؛ فقد مزقها الانقسام حتى جثت أمام الغزاة ثم أفقرها هؤلاء الغزاة فأفقدوها قوة المقاومة ، فاستجارت من هذا البلاء بغزاء فى الحياة الآخرة ، ومن هنا راحوا يؤمنون بأن السيادة والعبودية كلاهما وهم زائل ، ويعتقلون بأن حرية البدن أو حرية الأمة لا تكادان تستحقان الجهاد فى مثل هذه الحياة القصيرة ، والعبرة المرة التى نستخلصها من هذه المأساة هى أن اليقظة الساهرة أبداً هى ضمان دوام المدنية ؛ فالأمة ينبغى أن تحب السلام ، لكنها يجب أن تكون دواماً على أهبة الاستعداد للقتال .

## الفصل السابع

### أكبر العظيم (\*)

تيمورلنك ، بابلور - هميون ، أكبر ، حكومته -  
شخصيته - رعايته للفنون - نمحسه للفلسفة - حسن علاقته  
بالمندوسية والمسيحية - ديانتته الجديدة - أكبر في  
أخرىات أيامه

إن من طبيعة الحكومات أن يصيبها الانحلال ، لأن القوة - كما قاله  
شلي - تسم كل يد تمسها (٨٢) فقد أدى إسراف سلاطين دلهي إلى فقدانهم  
أييد الهنود لهم ، بل فقدانهم تأييد أتباعهم من المسلمين كذلك ؛ حتى إذا  
ما أغارت على البلاد جيوش مغيرة جديدة من الشمال ، منى هؤلاء السلاطين  
بالحزيمة بغير عناء كما كانوا هم أنفسهم قد كسبوا الهند بغير عناء .

وأول من انتصر عليهم في ذلك هو « تيمورلنك » الذي كان قد اعتنق  
الإسلام ليتخذ منه سلاحاً ماضياً ، كما قد أعد لنفسه قائمة أنساب تردّه إلى  
« جنكيز خان » لكي يعينه ذلك على كسب طائفة المغول إلى جانبه ؛ فلما أن  
فرغ من استيلائه على عرش سمرقند ، ولم يزل يحسُّ الرغبة في مزيد من  
الذهب ، أشرفت عليه فكرة مؤداها أن الهند لم تنزل حينئذ مليئة بالكفار ،  
لكن قواده كانوا يعلمون بسالة المسلمين ، فلم يذهبوا معه في الرأي ، موضحين  
له أن الكفار الذين يمكن الوصول إليهم من سمرقند ، كانوا بالفعل تحت  
الحكم الإسلامي ، ثم أفتى له الفقهاء العلماء بالقرآن بآية تبعث الحاسة في الصدور  
وهي : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم » (٨٣) فما هو إلا أن  
عبر تيمور نهر السند ( ١٣٩٨ ) وقتل أو استعبد كل من وقعت عليهم يده  
من السكان فلم يستطيعوا الفرار منه ، وهزم جيوش السلطان محمود طغلق

( \* ) في الوقت الذي اشتط فيه المؤلف بتجنينه على المسلمين - فيما تقدم - بغير سد  
وحجة ، نراه هنا - وهو في معرض الحديث عن « سلاطين دلهي » يقصر تقصييراً معيباً في بيان  
آثارهم الإصلاحية ، ويكتفي بالإشارة العابرة إليهم وإلى أتباعهم ، دون أن يسمف القارئ  
بكلمة عن هؤلاء السلاطين وكيف قاموا ، وعن هؤلاء الأتباع المسلمين وكيف طهروا !!!  
( الإدارة الثقافية )

واحتل دلهي ، وذهب مائة ألف من الأسرى ذبحاً متعمداً ، وسلب من المدينة كل أموالها التي كانت الأسرة الأفغانية المالكة قد كدستها هناك ، وحملها معه إلى سمرقند ، مستصحباً كذلك عدداً كبيراً من النساء والعبيد ، تاركاً وراءه الفوضى والحجاعة والوباء (٨٤) .

وعاد سبلاطين دلهي فاعتلوا عرشهم ، واستغلوا الهند قرناً آخر من الزمان ، حتى جاءهم الفاتح الحقيقي ، وهو « بابور » الذي أسس أسرة المغول (\*) العظيمة وهو يشبه الإسكندر كل الشبه في شجاعته وجاذبيته ، ولما كان سليل تيمور وجنكيز خان معاً ، فقد ورث كل ما اتصف به هذان الحاكمان — اللذان ألبيا آسيا — من قدرة ، دون أن يرث ما كان لهما من غلظة القلب ؛ وكان يعاني من فيض نشاط جسده وعقله ، ففطرق يقاتل ويخرج للصيد وللرحلة دون أن يروى بذلك غلته ، ولم يكن عليه عسيراً أن يقتل بمفرده خمسة أعداء في خمس دقائق (٨٧) ، وحدث أن قطع في يومين مائة وستين ميلاً وهو راكب على ظهر جواده ، ثم واصل مجهوده ذاك فسيح نهر الكنجج مرتين كأن الرحلة لم تكفه دليلاً على نشاطه ؛ ولقد قال وهو في أواخر سنه إنه منذ عامه الحادى عشر لم يصم رمضان مرتين في مكان واحد (٨٨) .

وله « ذكريات » يستلها بقوله : « لما بلغت من العمر اثني عشر عاماً أصبحت حاكماً على فرغانة » (٨٩) ولما بلغ الخامسة عشرة حاصر سمرقند واستولى عليها ، ثم ضاعت من يده لعجزه عن دفع رواتب جنده ؛ واعتلت صحته حتى أوشك على الموت ، واعتصم بالجبال حيناً ، ثم عاد إلى المدينة فاستولى عليها بقوة قوامها مائتان وأربعون رجلاً ، وعاد من جديد ففقدتها بخيانة غادر ، فاختبأ في غمرة من الفقراء عامين ، حتى لقد فكر في نقض يده

(\*) « المغول » و « المنغول » اسمان على مسمى واحد ، والمغول في حقيقة أمرهم أتراك ، لكن الهنود كانوا يسمونهم — ولا يزالون يسمونهم — المسلمين الشماليين ( ما عدا الأفغان ) بالمغول (٨٥) . وكلمة « بابور » كنية منغولية معناها أسد ، أما الاسم الحقيقي لأول إطواطور مغولي سيطر على الهند فهو زهير الدين محمد (٨٦) .

من حياة الجهاد مكنتياً بحياة الفلاحة في حقول الصين ؛ لكنه عاود نفسه فنظم جيشاً جديداً وأبدي من الشجاعة ما ألهب الشجاعة في نفوس جنده واستولى على كابل وهو في عامه الثاني والعشرين من عمره ، بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة بجيش السلطان إبراهيم في موقعة بانبات ، وقوامه مائة ألف جندي ، مع أن جيشه لم يزد على اثني عشر ألفاً ، ومعهم عدد من حراجلياد ، وقتل الأسرى ألوفاً ألوفاً ، واستولى على دلهي ، وأسس بها أعظم وأكرم أسرة أجنبية مما حكم الهند من أجاناب ؛ وأخيراً نعم بحياة وادعة أربعة أعوام ، كان يقرض فيها الشعر ويكتب ذكرياته ، ومات في سن السابعة والأربعين بعد أن عاش قرناً كاملاً إذا عدت السنون بما فيها من نشاط وتجربة .

وكان ابنه « هميون » من الضعف والتردد والإدمان في الأفيون بحيث لم يستطع أن يتابع السير في طريق أبيه « بابور » فهزمه « شرشاه » وهو من شيوخ الأفغان ، في موفعتين دمويتين ، واستعاد حيناً من الدهر سلطة الأفغان في الهند ؛ ولئن كان « شرشاه » قديراً هلي القتل في أحسن صورته الإسلامية ، إلا أنه كذلك أعاد بناء دلهي في ذوق معارى جميل ، وأقام في إدارة الحكم اصطلاحات مهدت السبيل للحكم المستنير الذي تم على يدي « أكبر » ؛ وبعد أن تولى الملك شاهان الشأن مدى عشرة أعوام ، نظم « هميون » قوة في فارس ، بغد اثني عشر عاماً قضاها في صعاب وتجواب ، ثم عاد إلى الهند واستعاد العرش ، لكنه لم يلبث بعد ذلك إلا ثمانية أشهر ، إذ سقط من شرفة مكتبته ففضى نخبه .

وكانت زوجته قد أنجبت له أثناء نفيه و فقره ولدأ أسماه (محمدآ) تبركآ بهذا الاسم ، لكن الهند أطلقت عليه « أكبر » - ومعناها « البالغ في عظمته حداً بعيداً » - ولم يدخروا من وسعهم شيئاً لتنشئته رجلاً عظماً ، بل إن أسلافه قد تعاونوا على اتخاذ التدابير كلها ليبلغوا به قمة العظمة ، ففي عروقه تجرى دماء « بابور » و « تيمور » و « جنكيزخان » وأعد له المربون في كثرة ، لكنه رفضهم جميعاً وأبى أن يتعلم القراءة ؛ وأخذ يُعَدُّ نفسه بدل ذلك لتولى

الملك بالرباطة الخطرة التي ما فتئ يرتاضها ، فأصبح فارساً يتقن ركوب الخيل إلى حد الكمال ، وكان يلعب بالكرة والصولجان لعب الملوك ، ومهر في فن سياسة القبيلة مهما بلغت من حدة الافتراس ، ولم يتردد قط في ارتياد الغابة لصيد الأسد والنور وفي تحمل المشاق مهما بلغ عناؤها ، وفي مواجهة المخاطر كلها بشخصه ؛ ولكي يكون تركيا أصيلاً ، لم يضعف ضعف الإناث فيمجم طعم الدماء البشرية ؛ من ذلك أنه لما كان في عامه الرابع عشر ، دعى ليزفر بلقب « غازى » - ومعناها قاتل الكفار - بأن قدموا له أسيراً هندياً ليقتله ، فبتر رأس الرجل يترأ في لحظة سريعة وبضربة واحدة من حسامه ؛ تلك كانت البدايات الوحشية لرجل كتب له أن يكون من أحكم وأرحم وأعلم من عرفهم تاريخ الدنيا من ملوك (\*) .

لما بلغ الثامنة عشرة من عمره تسلم مقاليد الأمور من يد الوصى على عرشه ، وكانت رقعة ملكه تمتد فتشمل أكثر من ثُمن مساحة الهند كلها - فهي شريط من الأرض يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة ميل ، ويمتد من الحدود الشمالية الغربية عند ملطان إلى بنارس في الجانب الشرقي ؛ وامتلاً بما كان يمتلىء به جده من حماسة وجشع ، فشرع يوسع هذه الحدود ، واستطاع بسلسلة من الحروب التي لم تعرف الرحمة أن يبسط سلطانه على الهندستان كلها ، ما عدا مملكة راجبوت التي تخضع لأسرة موار ، فلما عاد إلى دلهي نزع عن نفسه السلاح ، وكرس جهده لإعادة تنظيم حكومة ملكه ، وكان سلطانه مطلقاً فهو الذى يعين الرجال للمناصب الهامة كلها ، حتى ما يقع منها في الأقاليم النائية ، وكان معاونوه الأساسيون أربعة : رئيس الوزراء ويسمى « فقيراً » ، ووزير المالية ويسمى « وزيراً » أحياناً ، وأحياناً يسمى « ديواناً » ،

(\*) عرف قيمة الكتب في مرحلة متأخرة من حياته ، ولما لم يكن قد تعلم المرأة فقد كان ينصت لغيره ساعات وهو يقرأ له ، وكثيراً ما كانوا يقرمون له كتباً صعبة معقدة ، حتى أصبح في نهاية الأمر عالماً لا يقرأ ، يجب الآداب والفنون ، ويؤيدهما بسخاء الملوك .

«ورئيس القضاة ويسمى «نجشى» ورئيس للديانة الإسلامية ويسمى «صدراً» ؛ وكان كلما ازداد حكمه استقراراً ورسوخاً في القلوب ، قل اعتماده على القوة الحربية ، مكنفياً بجيش دائم من خمسة وعشرين ألفاً ، فإذا ما نشبت حرب ، زادت هذه القوة المتواضعة بمن يُجندهم الحكام العسكريون في الأقاليم - وهو نظام متصدع الأساس كان من عوامل سقوط الإمبراطورية المغولية في حكم «أورنجزيب» (\*) ، وفشت الرشوة والاختلاس بين هؤلاء الحكام ومعاونيهم ، حتى لقد أنفق «أكبر» كثيراً من وقته في مقاومة هذا الفساد : واصطنع الإقتصاد الدقيق في ضبط نفقات حاشيته وأهل أسرته ، فحدد أسعار الطعام وسائر الأشياء التي كانت تُشتري لهم ، كما حدد الأجور التي تدفع لمن تستخدمهم الدولة في شئونها ؛ ولما مات ، ترك في خزانة الدولة ما يعادل بليون ريال ، وكانت إمبراطوريته أقوى دولة على وجه الأرض ط (٩٠) :

كانت القوانين والضرائب كلاهما قاسياً ، لكنهما كانا مع ذلك أقل قسوة منهما قبل ذلك العهد ، فقد كان مفروضاً على الفلاحين أن يعطوا الحكومة مقداراً من مجموع المحصول يتراوح بين السدس والثلث ، حتى لقد بلغت ضريبة الأراضي في العام ما يساوي مائة مليون ريال ؛ وكان الإمبراطور يجمع في شخصه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ وكان إذا ما جلس في كرسي القضاء الأعلى ، أنفق الساعات الطوال ينصت إلى أقوال المتخاصمين في القضايا الهامة ؛ وكان من قوانينه تحريم زواج الأطفال وتحريم إرغام الزوجة على قتل نفسها عند موت زوجها ، وأجاز زواج الأرمال ، ومنع استرقاق الأسرى وذبح الحيوان للقرابين ، وأطلق حرية العقيدة للديانات كلها ، وفتح المناصب

(\*) كان الجيش معداً بجير سلاح عرفته الهند حتى ذلك الحين ، لكنه كان في هذه الناحية أقل إعداداً من جيوش أوروبا إذ ذلك ، وقتل «أكبر» في محاولته الحصول على بنادق خير من بنادق جيشه ، فضاقر سوء معدات القتل في جيشه مع انحلال خلفه من بعده ، على تيسير الفتح الأوروبي للهند .

لذوى الكفاءة مهما يكن من أمر عقيدتهم أو جنسهم ، ومنع ضريبة الرووس التي كان الحكام الأفغان يفرضونها على الهندوسيين الذين يأبون الدخول في الإسلام<sup>(٩١)</sup> ، وكان تشريعه في بداية حكمه يبيح عقوبات من قبيل بتر الأعضاء ، أما في نهاية عهده فرمى بلغم التشريع في بلاده من الرقي ما لم تبلغه أية حكومة أخرى في القرن السادس عشر ، إن كل دولة تبدأ بالعنف ثم تأخذ في طريق المدنية الذي ينتهي إلى الحرية ( ذلك إن أمنت على نفسها الخطر ) .

لكن قوة الحاكم كثيراً ما تكون ضعفاً في حكومته ، فقد كان بناء الحكم فائماً إلى حد كبير على « أكبر » بما كان له صفات عقلية وخلقية ممتازة ، ولذلك كان من البديهي أن يتعرض كل ذلك للإهيار بعد موته ؛ وبالطبع قد تحلّى بمعظم الفضائل ما دام قد استأجر معظم أقلام المؤرخين : فكان خير رياضى وخير فارس وخير محارب بالسيف ، ومن خير المهندسين في فنز العمارة ، وكان كذلك أجمل رجل في البلاد كلها ، أما الواقع فإنه كان طويل الذراعين ، مقوس الساقين ، ضيق العينين كسائر المنغوليين ، رأسه يعيل نحو اليسار ، وفي أنفه ثولول ( زائدة جلدية )<sup>(٩٢)</sup> ، لكنه كان يكتسب شكلاً محترماً بنظافته ووقاره وهدهوته وعينيه اللامعتين اللتين كانتا تتلألأآن ( كما يقول أحد معاصريه ) : « تلالأ البحر في ضوء الشمس » أو كانتا تشتعلان على نحو ترتعد له فرائص المعتدى كما حدث لغاندام أمام نابليون ، كان ساذج الثياب يغطي رأسه بغطاء مزركش ، ويرتدى صدرأ وسراويل ، ويرصع نفسه بالجواهر ، ويترك قدميه عاريتين ؛ وكان لا يعيل كثيراً إلى أكل اللحم ، ثم امتنع عنه امتناعاً تاماً تقريباً في أواخر سنه قائلًا « إنه لا يجمل بالإنسان أن يجعل من معدته مقبرة للحيوان » ومع ذلك فقد كان قوى الجسد قوى الإرادة ، وبرع في كثير من أنواع الرياضة التي تحتاج إلى حركة ونشاط ، واستخف بستة وثلاثين ميلاً يمشيها في يوم واحد ، وكان يحب اللعب بالكرة والصولجان .

حجاً حدا به أن يخترع كرة منيرة ليتمكن اللاعبون من القيام بلعبتهم هذه في ظلمة الليل ، وورث من أسلافه في أسرته ميولها الاندفاعية القوية ، وكان في شبابه ( مثله في ذلك مثل معاصريه من المسيحيين ) قادراً على مشكلاته بالاغتيال ؛ لكنه راض نفسه شيئاً فشيئاً على أن يجلس على بركان نفسه — على حد تعبير وودروولسن — وامتاز من عصره امتيازاً بعيد المدى في ميله إلى العدل ، وهو صفة لا يتميز بها حكام الشرق دائماً ؛ يقول « فرشتا » : « إن رحمته لم تعرف حدوداً بل إنه كثيراً ما ذهب في هذه الفضيلة حتى جاوزها حدود الحكمة (٩٣) » وكان كريماً ينفق الأموال الطائلة لإحساناً ، أحبه الناس جميعاً ، وخصوصاً الطبقات الدنيا ، فيقول عنه مبشّر جووتبي : « إنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا عطاياهم الحقيرة بوجه باسم ، فيتناولها بيديه ويضعها إلى صدره ، مع أنه لم يكن يفعل مثل ذلك مع أفخر الهدايا التي كان يقدها له الأشراف » ، وقال عنه أحد معاصريه إنه كان مصاباً بالصرع ، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولى عليه إلى درجة تسود معها نظرتة إلى الحياة اسوداداً مخيفاً وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون في اعتدال ، ولعله فعل ذلك ليكسب واقع حياته المظلم شيئاً من البريق ، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها ويأكلون الأفيون كما فعل ، لكنهم لم يكونوا يشبهونه في ضبطه لنفسه (\*) وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه ، فيروى لنا أحد الرواة « إن له في « أجرا » وفي « فتجور — سيكبرى » — هكذا يروون بصيغة الصدق — ألف فيل وثلاثون حصاناً وألف وأربعمائة غزال وثمانمائة خيليلة » لكنه لم يكن له فيما يظهر شهوات حسية ولا ميول تدفعه إلى الانغماس فيها ، نعم إنه أكثر من زوجاته ، لكنه كان زواجاً سياسياً ، فكان يتودد إلى أمراء الراجبوت بزواج بناتهم ، وهذا كسهم في تعصيد عرشه ،

(\*) مات اثنان من أبنائه في تنابها بسبب الإدمان في الخمر (٩٦) .

وأصبحت الأسرة الحاكمة المغولية منذ ذلك الحين نصف وطنية فما يجرى في عروقها من دماء ؛ ولقد أعلى رجلا من أسرة راجهوت حتى نصبة قائداً أعلى بلخيشه ، كما رفع أحد الرانجات إلى منصب كبير وزرائه ؛ وكانت أمنيته التي يحلم بها أن يوحد الهند (٩٠) .

لم يكن ذا عقل واقعي دقيق له برودة المنطق كما كان لقيصر أو نابليون بل كان يتزع بعاطفته نحو دراسة الميتافيزيقا ، ولو أنه خلغ عن عرشه لكان من الجائز أن يصبح صوفياً معتزلاً ؛ كان لا يكف عن التفكير ولا ينقطع عن اختراع الجديد واقتراح الإصلاح لما هو قائم (٩٥) ؛ وكان من عاداته مثل هارون الرشيد أن يمسه بالليل متنكراً ، ثم يعود إلى مأواه وهو جيش الصدر برغبة الإصلاح ، واستطاع وسط هذه المناشط الكثيرة أن يفسح بعض الوقت لجمع مكتبة عظيمة تتألف كلها مخطوطات جميلة الخط والنقش ، دججها له نساخون بارعون كانت لهم عنده منزلة الفنانين ، فهم في عينه لا يقلون مكانة عن المصورين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يزينون ملكه ؛ وكان يزدري الطباعة باعتبارها آلية لا تتجلى فيها شخصية الكاتب ، ولم يلبث أن استغنى عن العينات المختارة من الرسوم الأوروبية المطبوعة التي قدمها له أصدقاؤه من الجزويت ، ولم تزد مكتبته على أربعة وعشرين ألف كتاب ، لكن قيمتها بلغت ما يساوى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ريال (٩٧) عند أولئك الذين حسبوا أن أمثال هذه الكنوز الروحية يمكن تقديرها بأرقام مادية ، وأجزل العطاء للشعراء بغير حساب ، وقرّب أحدهم من نفسه - هو بربال الهندي - تقريباً جعله ذا حظوة كبرى في حاشية قصره ، وأخيراً نصّبه في الجيش قائداً ، فكان من نتيجة ذلك أن قام « بربال » بحملة حربية أظهر فيها عجزاً شديداً ، وقتل في جو أبعد ما يكون الجو عن خيال الشعراء (٩٨) (\*) :

(\*) كان « بربال » بغضاً لدى المسلمين . ولذا مرّح هؤلاء لموته ، حتى لقد سجل أحدهم -

وأمر « أكبر » أعوانه من الأدباء أن يترجموا إلى الفارسية - وقد كانت لغة قصره - آيات الأدب والتاريخ والعلم في الهند ، وراجع بنفسه ترجمة الملحمة الخالدة « ماهاهاراتا »<sup>(١٠٠)</sup> وازدهرت الفنون كلها في ظله وبتشجيعه ، فشهدت الموسيقى الهندية وللشعر الهندي في عهده عصرآ من أعظم عصورها وبلغ التصوير - الفارسي منه والهندي - مرتبة تالية في ارتماعها للأوج بفضل تشجيعه<sup>(١٠١)</sup> وأشرف في « أجرا » على بناء « الحصن » المشهور ، وأمر أن يبني بداخله خمسمائة بناء ، عدّها معاصروه من أجمل ما تراه العين في العالم كله ؛ لكن هذه المباني قد تحطمت تحطما على يدي « شاه جهان » الأرعن ، وليس في مقدورنا أن نحكم عليها استنتاجاً من آثار العمارة الباقية من عهد « أكبر » مثل مقبرة « هميون » في دلهي ، والآثار الباقية في « فتحبور - سيكري » حيث أقيم ضريح لصديق « أكبر » المحبوب ، الزاهد الشيخ سليم شستي ، وهو بناء من أجمل ما في الهند من بناء .

ثم كان له اتجاه آخر أعمق من هذه الاتجاهات كلها ، وهو ميله إلى التأمل ، فهذا الإمبراطور أو شك أن يكون قادراً على كل شيء ، تحرق فؤاده شوقاً إلى أن يكون فيلسوفاً - كما يشتهي الفلاسفة أن يكونوا أباطرة ، ولا يستطيعون ، أن يسيغوا حتى القدر في حرمانه إياهم ما هم جد يرون به من عروش ، فبعد أن فتح « أكبر » العالم ، أحسّ شقاء نفسه لأنه لم يستطع فهماً لهذا العالم الذي فتحه وقد قال : « على الرغم من أني أسود هذا الملك الفسح ، وزمام الحكومة كلها في يدي ، فلست مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حولي ، مادامت العظمة الحقيقية كائنة في تنفيذ إرادة الله ؛ فدع عنك هذه الأبهة الظاهرة المحيطة بي ، وقل لي كيف أطيّب بالاً ، في مثل هذا اليأس ، إذا

= وهو المؤرخ بادوني - حادثه موته بنشوة وحشية فقال . « إن بربال الذي فـ خوفأ من حياته ، قد قتل ودخل جهنم منخرطاً في صف الكلاب » (٩٩)

ما حملت عبء الإمبراطورية ؟ إنى لأرغب ظهور رجل حصيف ذى مبدأً  
 ليزيح عن ضميرى هذه المشكلات التى يتعدّر علىّ حلها ... إن الحديث فى  
 الفلسفة يفتنى فتنة تصرفنى عن كل ما عداها ، وإنى لأنصرف عن مماعها  
 رغم أنى حتى لا أهمل واجباتى التى تقتضها أمور الساعة» (١٠٢) ويقول  
 بادونى : « كان يحجّ إلى قصره طوائف العلماء من كل أمة ، والحكماء من كل  
 ملة ومذهب ، وكانوا يظفرون لديه بشرف استماعه إليهم ؛ وإذا ما فرغوا  
 من بحثهم وتقصّيم اللذين كانا شغلهم الشاغل ومهمتهم الأولى ليلا ونهاراً  
 تحدّثوا فى مسائل عميقة فى العلم ، ونقط دقيقة فى الوحى ، وأعاجيب التاريخ  
 وغرائب الطبيعة (١٠٣) ؛ ويقول « أكبر » : « إن سيادة الإنسان تعتمد على  
 جوهره العقل » (١٠٤) .

ولما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين ؛ فقد أغرته  
 قراءته الدقيقة للمحمة « ماهااراتا » ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكّامهم  
 بدراسة العقائد الهندية ، وليث حيناً - على الأقل - يؤمن بمذهب التناسخ ،  
 وخصيب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين طهر على الملأ بعلامات دينية هندية  
 على جبهته ؛ فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد  
 إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه ،  
 وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد ؛ وأن يحرم قتل الحيوان  
 فى أيام معلومة ، ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية ، التى جاءت  
 إلى الهند مع بعثة « جوا » البرتغالية ، أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين  
 لمذهب بولس ، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علماءهم ، وحدث بعد ذلك  
 أن قدّم جماعة من الجزويت مدينة دلهى ، وحبّبوه فى المسيح حتى أمر كتابه  
 أن يترجموا له العهد الجديد (١٠٥) وأباح هؤلاء الجزويت كل حرية فى أن ينصّروا  
 من شاءوا بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه ؛ وفى الوقت الذى كان الكاثوليك  
 يفتكون بالبروتستنت فى فرنسا ، والبروتستنت فى عهد اليصابات -  
 يفتكون بالكاثوليك فى إنجلترا ، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود فى أسبانيا،

وتسلبهم أملاكهم و « برونو » يقذف به في النار في إيطاليا ، كان « أكبر » يوجه الدعوة إلى ممثلي الديانات كلها في إمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً ، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم وأصدر المراسم بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها ، ولكي يقيم الدليل على حياده ، تزوج من نساء البراهمة ومن نساء البوذية ، ومن نساء المسلمين جميعاً .

وكان ألد ما يمنعه بعد أن بردت في نفسه جنوة الشباب المضطربة ، المناقشات الحرة في العقائد الدينية ، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً (\*) حتى أغضب بحياده هذا في الحكم رعيته من المسلمين ؛ يقول عنه . سانت فرانسس زافير « في شيء من المغالاة : « لقد حطم هذا الملك مذهب محمد ، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحدة ، ولم يعد في هذه المدينة مسجد أو قرآن — هو كتاب شريعتهم — وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن » ، ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحي ، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة ، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ في مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة : فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين ، زجرهم قائلاً إن الله ينبغي أن يعبد بالعقل لا بالتمسك بوحى مزعوم ، وكان مما قاله ، فجاء شبيهاً بروح كتاب « اليويانشاد » ، بل ربما كان في قوله هذا متأثراً « باليويانشاد » و « كابر » : « كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره ، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث » واقترح بعض المسلمين أن تُخسّر المسيحية لزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن ، وأن يمسك قسيس بالإنجيل ، ثم يخوضان معاً في النار ، فمن خرج منهما سالماً من الأذى ، اعترف له منادياً في الأرض بصوت الحق ،

(١) إذا كان لؤلؤ أن يعجب ما شاء له الإعجاب بنشاط السلطان ( أكبر ) العقلي ومحاواراته ومخارلاته في مجال العقيدة فليس من الإنصاف أن يصف ببساطة تعاليم الإسلام بالجمود . ( الإدارة الثقافية )

وتصادف أن « أكبر » لم يكن يجب الشيخ المسلم الذي اقترحوه لهذه التجربة . فتحمس للاقتراح ، لكن الجزويت رفضوه لأنه إلفك وخروج على الدين ، لا لأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة ، وجعل اللاهوتيون المتنافسون يمتنون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد يحضرها إلا « أكبر » نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية (١٠٦) هـ

وضاق أكبر ذرعاً بالانقسامات الدينية في مملكته . وأقرعه الاحتمال بأن تؤدي هذه الديانات المتنافسة إلى تمزيق المملكة بعد موته ، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكون منها ديانة جديدة ، تضم أهم تعاليم العقائد المختلفة في صورة بسيطة ويحكى لنا المبشر الجزويتي هذا النبأ كما يأتي :

« عقد اجتماعاً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين في المدن المجاورة ، لم يستثن أحداً إلا الأب « رِدْ أَسْفُو » الذي كان من العبث أن ترجومنه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداة ؛ فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه ، خطبهم بأسلوب سياسي ماهر ماكر قائلاً :

« إنه لمن الشر في إمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعضهم على بعض وأن يتباينوا في الرأي . . . ومن ثم نشأ في البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية ، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها في دين واحد ، على نحو يجعلها كلها ممثلة في هذا الواحد ، وتكون الفائدة الكبرى التي يجنيها كل من هذه الديانات ، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة . ثم يكسب كل ما هو حسن في سائر الديانات ، وبهذا وحده نمدح الله ونهي للناس سلامة وللإمبراطورية أمناً (١٠٧) هـ .

ووافق المجلس مرغماً ، فأصدر « أكبر » مرسوماً يعلن نفسه رئيساً ذيفياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه الرئاسة الدينية هي أهم ما أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة ؛ وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية في التوحيد خير تمثيل ، مضافاً إليه قبس من عبادة

الشمس والنار مأخوذاً من العقيدة الزردشتية ، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجانتي في إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم ، وعُدَّ ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر ، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس ، وما أقل ما اغتبط له المسلمون ؛ وصدر بعدئذ مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مائة يوم على الأقل كل عام ، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل ، وحرم تشييد المساجد وصيام رمضان والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين ؛ ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم ، نفى كثير منهم (١٠٨) ، وأقيم وسط «محكمة السلام» في «فتحبور - سيكري -» معبد للديانة المتحدة الحديدية ( ولا يزال هذا المعبد قائماً ) رمزاً للأمل الذي كان يضطرم في صدر الإمبراطور ، وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً - بفضل العقيدة الحديدية - إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة .

ولم يكن النجاح حليف « الدين الإلهي » باعتباره ديناً ووجد « أكبر أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجمل عن الخطأ ؛ نعم إن بضعة آلاف من الناس التفؤوا حول الدين الجديد ، كان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة ، لكن الأغلبية العظمى ما زالت مستمسكة بآهتها الموروثة ؛ وأما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة ؛ فلئن كان « أكبر » بوحه الديني الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية ومن الإسراف ، فقد عوّض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرووس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس ، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها (\*) ، وبإضعافه لروح التعصب الديني والجنسي وما يتبع ذلك من جمود الرأي وانقسام الطوائف ؛ ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس ، حتى أولئك الذين لم يعتقدوا منهم تلك العقيدة الحديدية ، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد ، وأغنى بها الوحدة السياسية للبلاد .

( \* ) إذا استقينا اضطراد الإسلام لفترة من الرس ( ١٥٨٢ - ٥ ) .

لكن هذا « الدين الإلهي » كان مصدر كراهية شديدة له في نفوس  
 لإخوانه في الإسلام ، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً ،  
 وإثارة الأمير « جهان كير » على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية ؛  
 وكان مما أثار القلق في نفس الأمر أن « أكبر » قد ظل يحكم البلاد أربعين  
 عاماً ، وأن بنيته لم تنزل من القوة بحيث لا أمل في موت قريب يصيبه ، لهذا  
 حشد « جهان كير » جيشاً من ثلاثين ألف فارس ، وقتل « أبا الفضل » مؤرخ  
 القصر وأحب الأصدقاء إلى نفس الملك ، ثم أعلن نفسه إمبراطوراً ، لكن  
 « أكبر » حمل الأمير الشاب على التسليم ، وعفا عنه بعد يوم واحد ، غير أن  
 خيانة الابن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه ، وحطمت قوته النفسية ،  
 وتركته فريسة هيبة « للعدو الأعظم » حتى لقد تنكر له أبناؤه في أواخر أيامه  
 وبدلوا جهدهم كله في النزاع على العرش ، ومات « أكبر » فلم يكن إلى جانبه  
 إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين - مات بمرض الديسنتريا ، أو مات  
 مسموماً بتدبير « جهان كير » على اختلاف الآراء في ذلك ، وجاء الشيوخ  
 لدينيون إلى فراش الموت يحاولون أن يردوه إلى الإسلام ، لكنهم منوا بالفشل ،  
 وهكذا « قضى الملك دون أن يجد من يصل على روحه بين أنصار أية عقيدة  
 أو مذهب »<sup>(١٠٩)</sup> ولم يشيخ جنازته عدد كبير من الناس ، فكانت جنازته متواضعة  
 وليس أبناؤه ورجال حاشيته ثياب الحداد بمناسبة موته ، لكنهم نخلوها في  
 مساء اليوم نفسه ، فرحين بوراتهم للملك من بعده فكان موته موتاً مريراً ،  
 مع أنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا في كل عصورها .

## الفصل الثامن

### تدهور المغول

بناء العظام - جهان كير - شاه جهان - عظمته - سقوطه -  
أورنجزيب - تمصه - موته - قدوم البريطانيين

عزَّ على الأبناء الذين ظلوا يرقبون موته في صبر نافذ أن يبقوا للإمبراطورية على وحدتها ، تلك الإمبراطورية التي خلقها نبوغه خلقاً ، فلماذا يحدث غالباً أن ينسل عظماء الرجال سلالة متوسطة القدرات والمواهب ؟ أيكون ذلك لأن البذور التي كانت قد أنتجت هؤلاء العظماء - أعنى امتزاج عناصر الأسلاف وممكّنات البيئة الحيوية - إنما سارت مدفوعة بالمصادفة وحدها ، فن الشطط أن نتوقع لها عودة إلى الظهور من جديد ؟ أم يكون ذلك لأن العبقري يستنفد في تفكيره وفي جهوده قوة كان يمكن أن يوجهها نحو رعاية أبنائه ، وذلك لا يبقى لورثته من بعده من دمه إلا أضعفه ؟ أم يكون ذلك لأن الأبناء ينحلون في ظل النعمة واليسار ، فتحرمهم بحبوحة العيش في سنهم الباكر الحواقر نحو الطموح والرقى ؟

على أن « جهان كير » لم يكن متوسط القدرات والمواهب بقدر ما كان منحللاً قادراً ؛ فقد ولد لأب تركي وأميرة هندية ، وانفتحت الفرص كلها التي تسنح لولي العهد ، فانغمس في الخمر والدعارة ، وأطلق لنفسه العنان في التمتع الساديّ بالقسوة على الآخرين ، وقد كان هذا الميل مجبولاً في فطرة أسلافه « بابور » و « هميون » و « أكبر » لكنهم دسّوه دساً في دماهم التثرية ، فكان يمتعه أن يرى الناس يُسَلِّخونَ أحياء ، أو تنفدُ فيهم « الخوازيق » أو يقذفون إلى الفيلة تمزقهم تمزيقاً : وهو يروى لنا في « مذكراته » أن سائسه

وطائفة من الخدم قدموا ذات يوم إلى ساحة صيده ، وكانوا من عدم الخلد بحيث أدى ظهورهم هناك إلى فزع الطرائد التي كان يتربص لها في صيده ، حتى أفلتت منه تلك الطرائد ؛ فأمر بالسائس أن يقتل ، ويخدم السائس أن تخلخل رُكبهم فيعيشوا أعمارهم كساحاً ؛ وهو يقول إنه بعد أن أشرف على تنفيذ أمره هذا « مضى صيده (١١٠) » ، ولما تأمر عليه ابنه « خسرو » جاء بسبعائة من أنصار الثائر وأنفذ فيهم « الخوازيق » وصفهم صفاً على امتداد الشوارع في لاهور ، وهو يذكر لنا في نشوة من السرور كم انقضى على هؤلاء الرجال من زمن حتى فاضت أرواحهم (١١١) ، وكان له حريم من ستة آلاف امرأة يرعين له حياته الجنسية (١١٢) لكنه فيما بعد انصرف إلى زوجة مفضلة ، هي « نورجهان » (\*) ، التي ظفر بها بقتل زوجها ؛ وكان يسود حكومته عدل محامد لكنه قاس ؛ غير أنه إلى جانب ذلك قد أسرف في نفقاته إسرافاً أبهظ أمة كانت قد أصبحت أغنى أُم الأرض طراً بفضل ما أبداه « أكبر » في سياسته لها من حكمة ، وما أسداه عليها أمنٌ طال أمده أعواماً كثيرة .

ولما دنا عهد « جهان كبير » من ختامه ، زاد الرجل انغماساً في خمره ، وأهمل واجباته الرسمية في الحكومة ، فكان من الطبيعي أن تنشأ المؤامرات الملء مكانه ، وحدث فعلاً سنة ١٦٢٢ أن حاول ابنه « جهان » أن يعتلي العرش ، ثم لما فاضت روح « جهان كبير » جاء « جهان » هذا مسرعاً من الدكن حيث كان محتفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وقتل كل إخوته ليضمن لنفسه راحة البال ؛ وقد ورث عن أبيه صفات الإسراف وصيق الصدر والقسوة ؛ فأخذت نفقات قصره والرواتب العالية التي كان يتقاضاها موظفوه الكثيرون تزداد نسبتها بالقياس إلى دخل الأمة التي كانت تنتجها لها صناعة مزدهرة وتجارة نافقة ؛ وبعد التسامح الديني الذي أبداه « أكبر » وعدم المبالاة التي

(\*) معناها « نور العالم » وهي تسمى كذلك نور محل ومعناها « نور القصر » جهان جبر معناها « فاتح العالم » وشاه جهان بالطبع معناها « ملك العالم » .

أظهرها «جهان كير» جاء «جهان» فعاد إلى العقيدة الإسلامية ، واضطهد المسيحيين ، وراح يحطم أضرحة الهندوس تحطياً واسع النطاق لا يعرف إلى الرحمة سيلاً .

وعوّض شاه جهان بعض نقائمه بسخائه لأصدقائه ، وكرمه للفقراء ، وبدوقه وتحمسه للفن مما حفزه إلى تزيين الهند بأجل فن معمارى شهده في تاريخها السابق كله ، ثم بإخلاصه لزوجته « ممتاز محل » - ومعناها « زينة القصر » - ولقد تزوج منها وهو في سن الحادية والعشرين ، بعد أن أنجب طفلين من خليفة أخرى ، وأنجبت « ممتاز » لزوجها الذي لم يعرف الكمال أربعة عشر طفلاً في ثمانية عشر عاماً ، ثم قضت نحبها في سن التاسعة والثلاثين ، وهي تلد آخر هؤلاء الأبناء ، فأقام شاه « جهان » « تاج محل » وهو آية بلغت حد الكمال ، أقامه تجليداً لذكراها وذكرى خصوصيتها ، ثم انتكس بعدئذ إلى دعارة مخجلة (١١٣) ، وهذا القبر الذي هو أجل قبور الدنيا جميعاً ، إن هو إلا واحد من مائة آية فنية شيدها « جهان » ، خصوصاً ما شيده منها في « أجرا » وفي « دلهي الجديدة » التي نمت تحت إشرافه ، وإن ما كلفته هذه القصور من مال ، وما غرقت فيه حاشية القصر من بلخ ، وما استنفده « عرش الطاوس » من أحجار كريمة (\*) ليدل بعض الدلالة على ما فرض على الناس في سبيل ذلك من ضريبة جاءت على الهند خراباً ، ومع ذلك كله ، ورغم ما شهده الهند إبان عهد « شاه جهان » من مجاعة هي أسوأ ما مرّ بها في تاريخها من مجاعات ، فقد كانت أعوامه الثلاثون التي قضاها في الحكم بمثابة الأوج

(\*) يتألف هذا العرش الذي تطلبت صناعته سبعة أعوام ، من جواهر ومعادن ثمينة وأحجار كريمة ، ولا شيء غير هذه ، فقوائمه الأربع من ذهب ، ويحمل سقمه المنطل بالمينا اثنا عشر عموداً من الزمرد ، وعلى كل عمود طاووسان مغطيان بالجواهر ، وبين كل طاووسين شجرة يغطيها الماس والزمرد والياقوت واللاز ، وبلغ مجموع التكاليف أكثر من سبعة ملايين ريال ، ولقد استولى « نادرشاه » على هذا العرش ونقله إلى فارس (١٧٣٩) وهناك أخذت أجزاءه تنتزع شيئاً فشيئاً لتسد نفقات الأسرة المالكة في فارس (١١٤) .

في ازدهار الهند وعلو مكاتها ، لقد كان هذا الملك الشامخ بأفنه حاكماً قديراً ، ولئن أهلك أنفساً كثيرة في حروبه الخارجية ، فقد هياً لبلاده جيلاً كاملاً من السلام ، كتب حاكم بريطانيا عظيم لبمباي ، هو « مونستيوارت إلفينستون » يقول :

« إن من ينظر إلى الهند في حالتها الراهنة قد يميل إلى الظن بأن الكتاب الوطنيين إنما يسرفون في وصف ثراء البلاد قديماً ؛ لكن المدن المهجورة والقصور الخاوية والقنوات المسدودة التي لا تزال نراها ، بما هناك من خزانات كبرى وجسور في وسط الغابات ، والطرق المتهدمة والآبار ومحطات القوافل التي كانت على امتداد الطرق الملكية ؛ كل ذلك يؤيد شهادة الرحالة المعاصرين بحيث يميل بنا إلى العقيدة بأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون أقوالهم على سند صحيح » (١١٥)

كان « جهان » قد بدأ حكمه بقتل إخوته ، لكن فاته أن يقتل أبناءه كذلك فكتب لأحد هؤلاء الأبناء أن يخلعه عن العرش وذلك هو « أورنجزيب » الذي أثار ثورة سنة ١٦٥٧ وجاء زاحقاً من الدكن ؛ فأمر الشاه - شأنه في هذا شأن داود - أمر قواده أن هزموا الجيش النائر على أن يقتلوا ابنه إن وجدوا إلى إنقاذ حياته من سبيل ؛ لكن « أورنجزيب » غلب جميع الجيوش التي أرسلت لمحاربتة ، وألقى القبض على أبيه وسجنه في « حصن أجرا » حيث لبث الملك الخلع تسعة أعوام يعاني مشرّ العذاب ، لم يزره ابنه في سجنه قط ، ولم يكن في جواره من يراه سوى ابنته المخلصة « جهانارا » ، وكان ينفق أيامه جالساً في برج الياسين « مرسلًا بصره عبّسَ « جنة » إلى حيث ترقد زوجته الحبيبة « ممتاز » في قبرها المزدان بالجواهر .

على أن هذا الابن الذي نخلع أباه على هذا النحو القاسي ، من أعظم القديسين في تاريخ الإسلام ، بل ربما كان أمير الأباطرة المغول جميعاً بما كان ينفرد به من صفات ؛ فشيوخ الدين الذين تولوا تنشئته صبغوه بدين صبغاً حتى لقد فكر هذا الأمير الشاب يوماً في أن يتفرض يده من الإمبراطورية

بل من العالم كله ، ليعتزل الدنيا راهباً متعبداً ؛ ولبت حياته كلها - رغم طغيانه ودهاء سياسته وتوهمه بأن الأخلاق لا تكون إلا في مذهبه الديني - لبت حياته كلها رغم ذلك مسلماً ورعاً ، يقيم الصلاة وينفق فيها وقتاً طويلاً ، ويحفظ القرآن كله ، ويجاهد في قتال الكفار ؛ وما أكثر ما قضى من ساعات يومه في عبادته ، وما قضى من أيام حياته صائماً ؛ وكان في معظم الأحيان يخلص في أداء شعائر دينه إخلاصه في الدعوة إليها ؛ نعم لقد كان في السياسة بارداً يقدر عواقب الأمور تقديراً دقيقاً ، وله قدرة على الكذب الماهر في سهيل بلاده ورببه ؛ لكنه مع ذلك كان أقل المغول قسوة وألطفهم مزاجاً ؛ قل القتل في عهده ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب في محاكمة المجرمين ؛ وكانت شخصيته منسقة الجوانب فتواضع في عزة وصبر في وجه المعتدى ، وهدوء نفس في أوقات المحنة ؛ وامتنع عن كل ما يجرمه دينه من ألوان الطعام والشراب وأسباب الترف امتناعاً كان يرقبه فيه ضميره ؛ وعلى الرغم من براعته في عزف الموسيقى ، ألقع عنها لأنها ضرب من اللذة الحسية والظاهر أنه نفذ ما صمم عليه وهو ألا ينفق على نفسه إلا ما كسبت يده بالعمل<sup>(١١٦)</sup> فكأنه كان بمثابة القديس أوغسطين أجلس على العرش .

كان « شاه جهان » قد خصص نصف دخله لترقية العمارة وغيرها من الفنون ، أما « أورنجزيب » فلم يعبأ بالفنون ، وهدم ما فيها من آثار « الكفر » مدفوعاً بتعصب ديني ساذج ، وظل خلال نصف القرن الذي حكم البلاد فيه ، يحارب في سبيل محو الديانات كلها من الهند إلا ديانته ؛ وأمر عماله في الأقاليم وغيرهم من أتباعه أن يقوضوا كل المعابد التي تتبع الهندوس أو المسيحيين ، وأن يحطموا الأصنام جميعاً ، وأن يغلغلو مدارس الهندوس بغير استثناء ، فكان من جراء ذلك أنه في عام واحد ( ١٦٧٩ - ٨٠ ) هدم ستة وستين معبداً في « عنبر » وحدها ، وثلاثة وستين معبداً في « شيتور » ، ومائة وثلاثة وعشرين معبداً في « أودايبور »<sup>(١١٧)</sup> وأقام مسجداً إسلامياً<sup>(١١٨)</sup> في مكان

معبد كان قائماً في بنارس وكان موضع قدسية خاصة عند الهندوس ، بغية الإساءة المتعمدة إليهم ، وحرّم إقامة الشعائر الهندوسية علناً ، وفرض ضريبة غادجة على كل هندي لم يعتقد الإسلام (١١٩) ، فكان من نتيجة هذا التعصب الديني أن خربت ألوف المعابد التي كان يتمثل في بنائها ، أو تحتوى داخل جدرانها فنون الهند مدى ألف عام ، فيستحيل علينا اليوم إذا ما أرسلنا الأبصار في جنبات الهند ، أن نعلم شيئاً مما كان لها من جلال وجمال .

استطاع «أورنجزيب» أن يحول حفنة من جنباء الهندوسيين إلى الإسلام لكنه حطم أسرته وبلاده معاً ، وأثن عده بعض المسلمين على أنه من القديسين ، فقد عده ملايين العشب الهندي الذي أحرست ألسنتهم وأرعبت قلوبهم ، شيطاناً رجماً ، وفروا من جباة ضرائبه وتضرعوا إلى الله داعين له بالموت ، نعم . بلغت الإمبراطورية المغولية في الهند أثناء حكمه أوج رفعتها ، إذ امتدت رقعته إلى بطاح الدكن ، لكنها كانت قوية لا تقم أساسها على حب الشعب ، وكان لا بد لها أن تنهار عند أول لمسة معادية قوية ، حتى لقد بدأ الإمبراطور نفسه في أواخر سنه يتبين أنه قد جلب الدمار إلى تراث آبائه بورعه الضيق الأفق ، وإن ما كتبه في فراش موته من خطابات ، ليُعدّ وثائق تساق لمأساتها ، يقول فيها :

«لست أدري من أنا ، ولا إلى أين يكون مصيرى ولا أعلم ماذا عساه أن يصيب هذا الآثم المليء باللذونب ... لقد انقضت أعوامى بغير غناء ، كان الله مائلاً في قلبي ، لكن عيني المظلّمتين لم يشهدا نوره .. ليس لي في المستقبل رجاء ، لقد ذهبت عنى الحمى ، لكن لم يعد لي من الجسد إلا إهابه لقد كنت كبير الإثم ولست أدري أى عذاب أنا ملاقيه .. . . . . وعليك سلام الله (١٢٠) » .

وأمر قبل موته أن تكون جنازته بسيطة إلى حد الزهد ، وألا ينفق في كنفه إلا الروبيات الأربع التي كسبها بجباكة الطواقى ، وأن يغطى نعشه بقطعة

من « الخيش » الساذج ؛ وترك للفقراء ثلاثمائة روية كسبها بنسخه صورة من القرآن (١٢١) ، ومات وعمره تسعة وثمانون عاماً ، بعد أن عُمر على الأرض أمداً أكثر جداً مما أراد له أهل الأرض أن يعيش .

ولم تمض بعد موته سبعة عشر عاماً حتى تحطمت إمبراطوريته إرباً إرباً ؛ وكان ما كسبه « أكبر » بحكمته من مناصرة الناس للحكومة ، قد أضاعه « جهان كبير » بقسوته ، و « جهان » بإسرافه و « أورنجزيب » بتعصبه ؛ وكانت الأقلية المسلمة قد أنهدمت قواها بحرارة الهند ، وفقدت النخوة العسكرية والقوة الجسدية التي كانت لها أيام شبابه ، ولم تأت إليها حملات جديدة من الشمال تشد أزرقواها المنهارة ، ثم حدث في الوقت نفسه أن بعثت جزيرة صغيرة نائية في الغرب بطائفة من تجارها لتحصد ما في الهند من كنوز ، ولم تلبث بعدئذ أن أرسلت مدافعها لتستولى على هذه الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء ، التي تعاون فيها الهندوس والمسلمون على بنيان حضارة من حضارات التاريخ الكبرى .